

مصر

رأينا في فصل سابق أن تعميم العقائد المشتركة كان مرتين بقيام الدول الواسعة التي تطوى فيها عقائد القبائل والشعوب وتتجاوز أطرافها حدود الأمة الواحدة ، ونسميها في عصرنا هذا بالإمبراطوريات .

والدول التي كان لها القسط الأوفى من هذه المساهمة العامة هي مصر وبابل والهند والصين وفارس واليونان ، وتضاف إليها اليابان لولا أنها في عزلتها قد أخذت أكثر مما أعطت ، وقد تخلفت من جراء هذه العزلة عن بعض الأطوار التي سبقها إليها الأمم المتصلة بالمعاملات والمبادلات ، فتلبت ببقايا الوثنية إلى مطلع العصر الحديث .

أما مصر فتاريخها في أطوار الاعتقاد هو تاريخ جميع الأطوار من أديانها إلى أعلاها بلا استثناء .

فشاعت فيها « الطواطم » في كلا الوجهين قبل اتحاد المملكة وبعد هذا الاتحاد، ويظن الكثيرون من علماء الأديان أن تقديس الصقر والنسر وابن آوى والقط والنسناس والجعل والتمساح وغير ذلك من فصائل الحيوان هي بقايا «طوطمية» تحولت مع الزمن إلى رموز ، ثم فقدت معنى الرموز واندججت في العبادات المترقية على شكل من الأشكال .

وشاعت فيها عقيدة الأرواح ، فكان المصريون من أعرق الأمم التي آمنت بالروح ، ثم آمنت بالبعث والثواب والعقاب بعد الموت ، ورمزوا للروح « كا » تارة بزهرة ، وتارة بصورة طائر ذى وجه آدمى ، وتارة بتمساح أو ثعبان ، وقالوا بأن الروح تتشكل بجميع الأشكال ؛ ولكنهم لم يقولوا بتناسخ الأرواح ، وأجل اختلاف الرموز من بقايا اختلاف الطواطم في زمان سابق لزمان الاعتقاد بالبعث والثواب والعقاب . أما أثبت العبادات وأعماها وأقواها وأبقاها إلى آخر العصور فهي عبادة الموتى والأسلاف دون مرء . فإن عناية المصري بتشييد القبور وتحنيط الجثث

ولإحياء الذكريات لا تفوقها عناية شعب من الشعوب . وقد بقيت آثار هذه العبادة إلى ما بعد بزوغ الديانة الشمسية وتمثيل أوزيريس بالشمس الغاربة ، ثم تغلبه على عالم الخلود وموازين الجزاء .

فقصة أوزيريس هي قصة آدمية تشير إلى واقعة قديمة مما كان يحدث في الأسر المالكة في تلك العصور السحيقة ، وهي قصة ملك أحبه شعبه ثم نازعه أخوه « ست » عرشه فقتله . وجاءت زوجته « إيزيس » بعد ذلك بابن اسمه « حوريس » أخفته في مكان قصي حتى بلغ الرشد . . . فرشحته للملك فساعده أنصار أبيه على بلوغ حقه في العرش ؛ وعاد « ست » ينازعه هذا الحق أمام الآلهة ويدعى عليه أنه ابن « غير شرعي » من أب غير أوزيريس ، فلم تقبل الآلهة دعواه ، وحكمت لحوريس بالميراث .

وتقول الأسطورة إن أوزيريس ولد في الوجه البحري ولكن رأسه دفن في الصعيد بقرية العرابة المدفونة ، وإن « ست » حين قتله فرق أعضائه بين البقاع لكيلا يعثر على جثته أحد من المطالبين بثأره ، ولكن إيزيس جمعت هذه الأعضاء وتعهدتها بالصلوات والأسحار حتى دبت فيها الروح من جديد وحملت منه بحوريس الذي قدح عمه في نسبه . وقد حاول أوزيريس أن يعود إلى الملك فأخفق في محاولته وقتع بالسيادة على عالم « المغرب » حيث تغيب الشمس وتنحدر إلى عالم الأموات .

وللخصب شأن لا يستغرب في ديانة مصر القديمة . فهم يرهزون إلى الكون كله ببقرة تطلع من بطنها النجوم ، أو بامرأة تنحني على الأرض بذراعيها ويستنداها « شو » إله الهواء بكلتا يديه ، وأقدم ما تخيلوه في أصل العالم المعمور أنه عيلم واسع من الماء، طفت عليه بيضة عظيمة ، خرج منها رب الشمس وأنجب أربعة من الأبناء هم « شو » و « تفنوت » القائمات بالفضاء و « جب » رب الأرض و « نوت » رب السماء . ثم تزوجت السماء والأرض فولد لهما أوزيريس وإيزيس وست ونفتيس ، فهم تسعة آلهة في مبدأ الخليقة نشأوا من تزواج الأرض والسماء . ثم استقر الأمر لثلاثة من هؤلاء هم أوزيريس وإيزيس وحورس ، وهناك صيغة

أخرى من قصة الخلق، فحواها أن « رع » كان مزدوج الطبيعة، فتولد منه الخلق، فهو منهم بمثابة الأبوين .

ويتراعى لفريق من المؤرخين أن « رع » نفسه - إله الشمس - كان ملكاً على مصر في زمن من الأزمان ، ويستدلون على ذلك بخلاصة قصته المذكورة في الأساطير : وهي أن رع ملك الدنيا قبل سكانها من البشر ، فتمرد عليه رعاياه فسلط عليهم ربة النقرة «حاتحور» ثم أشفق عليهم من قسوتها، فاعتزل الدنيا وحملته بقرة السماء على ظهرها فأقام هناك، واندمج شخصه بعد حين بشخص أوزيريس . وقد فعل غربال الزمن فعله في تصفية هذه العقائد والأرباب . ففسى أوزيريس السلف المعبود ورسخ في الأذهان وصف أوزيريس الشمس القائمة على المغرب أو عالم الأموات ، وتوحدت عبادة الشمس بمعناها وتعددت بأسمائها ومواعيدها ، وجمعت بينها كلها عبادة « أمون » ثم عبادة أتون .

وعبادة « أتون » هي أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

فلم يكن المراد بأتون قرص الشمس ولا نورها المحسوس بالعيون ، ولكن الشمس نفسها كانت رمزاً محسوساً للإله الواحد المتفرد بالخلق في الأرض والسماء . وإنما جاء هذا الطور بعد تمهيدات دينية وسياسية تهيأت لمصر ولم تهيأ لغيرها من الدول الكبرى في تلك الفترة .

فكانت في أقاليم القطر - قبل ظهور عبادة أتون - ثلاث عبادات «شمسية» تتنافس في المبادئ الروحية ووسائل النفوذ التي تتغلب بها على النظراء . فكانت منف تدين لإله الشمس باسم فتاح .

وكانت عين شمس أو « هليوبوليس » تدين له باسم رع وأحياناً باسم « أتوم » . وكانت طيبة تدين له باسم أمون .

ويتبين من مراجعة الدعوات والصلوات المحفوظة أن عبادة « فتاح » كانت أقرب هذه العبادات إلى المعاني الروحية . فارتفع « فتاح » من صانع حاذق بالبناء والتماثيل وسائر الصناعات إلى صانع مختص بإقامة الهيكل المقدس الذي أصبح في اعتقادهم مثالا للعالم بأرضه وسمائه ، وما هي إلا خطوة واحدة بين بناء

الهيكلي الذي يمثل العالم كله وبناء العالم كله من أقدم الأزمان قبل خلق الإنسان . وارتفع فتاح طبقة أخرى في مدارج القدرة والتنزه عن النظراء ، فتعالى عن الأجساد الشاخصة للحس ، وتمثل لعباده روحاً مسيطرة على كل حركة وكل سكون في جميع المخلوقات ، من ذات حياة وغير ذات حياة . فكان فتاح كما جاء في إحدى صلواته هو « الفؤاد واللسان للمعبودات ، ومنه يبدأ الفهم والمقال ، فلا ينبعث من ذهن ولا لسان فكر أو قول بين الأرباب أو الناس أو الأحياء أو كل ذى وجود إلا وهو من وحى فتاح . . . »

وما وجد شيء من الأشياء قط إلا بكلمة من لسانه صدرت عن خاطر في فؤاده . فكلمته هي الخلق والتكوين .

ويرى المؤرخ الكبير برستيد أن عقيدة فتاح هي أساس مذهب الخلق بالكلمة Logos عند الإغريق الأقدمين . فلا حاجة بالخالق إلى أداة للخلق غير أن يشاء ويأمر ، فإذا بما يشاء موجود كما شاء . ومن المحتمل جداً أن كهان تلك العصور تدرجوا إلى فهم قوة الكلمة الإلهية من فهمهم لقوة الكلمة على لسان الساحر ، وقوة الكلمة على لسان المبتهل بالصلاة .

ونسج كهان عين شمس على منوال كهان منف في تنزيه رع وتجريده من ملابسات الحس والتجسيد ، ولا سيما بعد تفرغهم للعبادة الروحية وانصرافهم إليها كلما تعاضم سلطان الكهان في طيبة وتفاقت سيطرتهم على مناصب الدولة ، وهم كهان أمون .

وقد توطلت كهانة أمون في أيام المملكة الوسطى وبلغت أوجها بعد عهد تحوتمس الثالث أكبر ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ومرشح أمون — أو كهان أمون بعبارة أخرى — للسيادة المطلقة على أرجاء البلاد .

واتسعت الدولة المصرية في عهد تحوتمس الثالث حتى تجاوزت حدودها بلاد النوبة والصومال في اجنوب ، وامتدت إلى القران وآسيا الصغرى في الشرق والشمال ، وكان اتساع الأتق في السياسة مقترناً باتساع الأتق في تصرر العالم وما ينبني لخالفه من اتعظيم وانتزيد ، فارتضى الفكر الإنساني في هذا العهد من

البيثة المحلية إلى بيثة عالمية ، ثم إلى بيثة أبدية تنطوي فيها أبعاد المكان والزمان .
 وطعى نفوذ الكهان الأمونيين على كل نفوذ في البلاد من جراء هذه القرى
 بينهم وبين الملك العظيم . فاستأثر رئيسهم بلقب « الرئيس » في أنحاء الديار ،
 وضيقوا الخناق على كهان رع وفتاح ، ولزموا حدودهم مع الملك العظيم في أثناء
 حياته لقوته ورهبته وعلو اسمه بالمظافر والفتوح ، وفروا ما أغدق عليهم من الهبات
 والحبوس والأوقاف ، ولكنهم ذهبوا في الطغيان كل مذهب على عهد خلفائه ،
 فطمعوا في نفوذ الملك بعد اطمئنانهم إلى نفوذ الدين .

ومن هنا خطر للملوك خاطر الخلاص من هذا النفوذ ، فتكلم أممحتب
 الثالث عن أمون في بعض أوامره وتسجيلاته باسم آخر : هو اسم آنون .
 وساعد على هذا التبديل اللطيف أن صفات الإله في أذهان المصريين
 كانت أقرب إلى صفاته عند كهان منف وعين شمس ، وأن مسالك الكهان
 الدينويين من شيعة أمون لم تكن وفاق الآداب والعادات التي استلزمها ارتقاء
 المصريين في فهم كمال الإله .

فلما تولى الملك أممحتب الرابع - أو إخناتون كما تسمى بعد ذلك - كان
 التمهيد للعبادة الجديدة قد بلغ مداه ، وكان اتساع الأفق في النظر إلى الدنيا
 والنظر إلى صفات خالقها قد وسع له المجال للابتكار والتجديد ، وأعان عبقرته
 على التدعيم بعد التمهيد

* * *

وقد حفظت لنا النقوش والتماثيل والألواح وأوراق البردى كثيراً من أخبار
 إخناتون وأحواله وملاحمه وسيرته في مملكته وفي بيته ، وتكفي لمحات عابرة إلى شكل
 مجتمعه وتركيب بنيته وأساليب تفكيره ومناحي عباراته للعلم بأنه كان عبقرية من
 أولئك العباقرة الملهمين ، الذين يحدثننا النفسانيون أنهم يتلقون العبقرية على حساب
 أبدانهم وهناعتهم في حياتهم ، كما نقول في تعبير هذه الأيام .

وكان الفتى إخناتون حدثاً ناشئاً عند ولاية الملك ، معروفاً بالعكوف على
 التأمل والتفكير والحلوة بنفسه في صلواته ومناجاته ، وكان لطيف الحس حالم
 النفس منصرفاً عن طلب البأس والقوة ومتابعة الفتوح والغزوات التي توطد بها ملك

آبائه وأجداده فطمع فيه كهنة أمون ، وخيل إليهم أنهم مالمكون زمام الأمر كله .
غير أن الفتى الخالم كان عبقريةً يحب الابتكار والتفقه في العبادة بالعقل
والبداهة المستقلة ، ولم يكن تقليدياً يلقي بزمامه لمن يسيطر عليه .

وكان مع لطف حسه قوى النفس صعب المراس ، فاستنكر دسائس
الأمونيين ونهاقهم على المناصب والأموال .

فقمعهم قمعاً شديداً ومحا اسم أمون من كل مكان ، حتى هياكل أبيه واسمه
الذى يبدأ باسم أمون ، وجهر بعبادة « آتون » دون سواه ، وهجر العاصمة التي
ساد فيها هذا الإله إلى عاصمة أخرى في أواسط الصعيد ، وهبها لربه الواحد
الأحد وسماها « أخت آتون » .

وألغى جميع الأرباب وأعوانهم من الأرواح والجنّة ، وأولم الرب القديم
أوزيريس ، فكان هذا من أسباب غلبته يومئذ ، وأسباب التمرد عليه بعد حين .
ومن صلوات إخناتون تُعرف صفات الله الذى دعا إلى عبادته دون سواه ،
فإذا هى أعلى الصفات التى ارتقى إليها فهم البشر قديماً في إدراك كمال الإله .
فهو الحى المبدئ الحياة ، الملك الذى لا شريك له في الملك ، خالق الجنين
وخالق النطفة التى ينمو منها الجنين ، نافث الأنفاس الحية في كل مخلوق ، بعيد
بكماله ، قريب بآلائه ، تسبح باسمه الخلائق على الأرض والطير في الهواء ،
وترقص الحملان من مرح في الحقول فهى تصلى له وتستجيب لأمره ، ويسمع
الفرخ في البيضة دعاءه فيخرج إلى نور النهار واثباً على قدميه ، قد بسط الأرض
ورفع السماء وأسبغ عليهما حلال الجمال ، وهو ملء البصر وملء الفؤاد ، وهو هو
الوجود وواهب الوجود ، وشعوب الأرض كلها عبيده لأنه هو الذى أقام كل شعب
في موطنه ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض ومن أيام العمر في رعاية الواحد
الأحد آتون .

وقد عقد كل من هنرى برستيد وأرثر ويجال Weigall مقارنة بين صلوات
إخناتون وأحد المزامير العبرية . فاتفقت المعانى بينهما اتفاقاً لا ينسب إلى توارد
الخواطر والمصادفات .

ومن أمثلتها قول إخناتون : « إذا ما هبطت في أفق المغرب أظلمت الأرض

كأنها ماتت . . . فتخرج الأسود من عرائنها والثعابين من جحورها . . . «
ويقبله المزمور الرابع بعد المائة وفيه أنك « تجعل ظلمة فيصير ليل يدب فيه
حيوان الوعر وتزجر الأشبال لتخطف ، ولتلمس من الله طعامها » .
ويمضي المزمور قائلاً : « . . . تشرق الشمس فتجتمع وفي مأويها تريض ،
والإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله في المساء . ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة
صنعت . والأرض مآبنة من غناك ، وهذا البحر الكبير الواسع الأطراف .
وهناك دبابات بلا عدد صغار مع كبار . هناك تجرى السفن ، ولويثان
(التمساح) خلقته ليلعب فيه . . . »
ومثله في صلوات إخناتون : « ما أكثر خلائقك التي نجهلها . أنت الإله
الأحد الذي لا إله غيره ، خلقت الأرض بمشيئتك ، وتفردت فعمرت الكون
بالإنسان والحيوان الكبار والصغار » .

« . . . تسير السفن مع التيار وفي وجهه ، وكل طريق يفتح للمسالك لأنك
أشرفت في السماء . ويرقص السمك في النهر أمامك ، وينفذ ضيائك إلى أغوار البحار » .
« . . . وتضيء فتزول الظلمة . . . وقد أيقظتهم فيغتسلون ويسعون ويرفعون
أيديهم إليك . . . ويمضي سكان العالم يعملون » .

* * *

وقد خطر لويجال - كما قال في كتابه عن حياة إخناتون وعصره - إن آتون
وآتوم تصحيف « أدوناي » بمعنى السيد أو الإله في اللغة العبرية ، وأن إخناتون
ورث آراه من أمه ، وهي تنتمي إلى سلالة آسيوية من شعب يقم بين سورية وآسيا
الصغرى ، حيث يعبد دوناي أو آتون ، على مختلف اللهجات .
وهذا وهم جلبه التشابه في الأسماء . لأن « آتوم » من أقدم الأرباب المصرية
في معابد رع ، وقد كان رب الكون حيث لا شيء غير اللجة الطخياء المسماة في
الأساطير المصرية « نون » . . . وجاء في الفقرة السابعة عشرة من القسم الأول في
كتاب الموتى على لسانه : « . . . وأنا آتوم متفرداً في نون ، وأنا رع حيث يبرز
مع الفجر ليبيسط يديه على الدنيا التي خلقها . . . »
وكانوا يمثلونه على تمثال رجل ملتج على رأسه تاجي القطرين ، أي الناج

الأحمر لمصر السفلى والتاج الأبيض لمصر العليا مجتمعين ، ويجعلونه رئيس مجلس الآلهة باسم رع هيرختي آتوم Ra-Herakhty-Atum

فهو رب أصيل وليس بالرب المستعار ، ولا شبه بينه وبين أدوناي أو أدونيس - في صيغته اليونانية - لأن أدونيس رب الربيع والغرام يتخيلونه في ميسم الشباب ويزعمونه زوج فينوس أو الزهرة ، ولا شيء من هذا في خصائص آتوم الذي يبدو على مثال الكهول ذوى اللحي ، ويتقلد مفاتيح الحكم والحكمة ، ويرجع إلى مبدأ الخليفة حيث لا شيء غير الماء والظلام .

والأرباب الشمسيون أشبه بهياكل عين شمس ، لأنها أرباب أصيلة فيها لا تحتاج تلك الهياكل إلى استعارتها من ديانة أجنبية . ولا سيما الرب الذى يحمل تاجي القطرين ويرأس المحكمة الإلهية فى السماء .

وقد كانت لظهور آتون تمهيدات لازمة لم تحدث فى غير المملكة المصرية ، وهى تمهيدات الإمبراطورية ، وتمهيدات التنافس بين أمون ورع وفتاح ، وتمهيدات العبقرية التى تبشر بالدين الحديد .

وكانت لآتون خصائص متفردة لم يشركه فيها إله آخر من آلهة الأمم القريبة إلى مصر ، وهذا هو المهم فى نشوء الديانات وليس المهم مجرد التشابه فى مخارج الحروف . فليس أدونيس عند اليونان كأدوناي عند العبريين ، وليس هذا ولا ذلك كآتوم فى معبد عين شمس أو غيره من المعابد المصرية ، وليس هؤلاء جميعاً كالإله آتون الذى دعا إليه إخناتون . فلا وجود لآتون بهذه الخصائص لو لم تسبقه التمهيدات القديمة التى مرت بعبادة آتوم فى مصر ، ومنها اتساع الدولة وإيمان المصريين بصفات رع وفتاح وأمون ، وحاجة الزمن إلى فهم جديد لصفات الكمال فى الإله ، ثم عبقرية إخناتون التى تمت بابتكارها واجترائها مبادئ التاريخ . وقد كان عرب الجاهلية مثلاً يعرفون اسم الله كما نعرفه اليوم ، ولكن الله الذى وصفوه والله الذى وصفه الإسلام لا يتشابهان بغير الحروف ، وبينهما من الفارق كما بين أبعده الأرباب .

* * *

على أن ويمال يقابل بين معانى إخناتون ومعانى المزمور ، فيرجح الاستعارة

بينهما ، ويعود فيرجح أن إخناتون كان في غنى عن الاستعارة لما طبع عليه من العبقرية الدينية وما اتسم به كلامه من طابع الابتكار .

وقد تناول العلامة « فرويد » مسألة المقابلة بين عقائد إخناتون والعقائد العبرية فألف آخر كتبه في موضوع هذه المقابلة وسماه « موسى والوحدانية » Moses and monotheism وانتهى من مقابلاته وفروضه إلى تقرير رأيه المرجح لديه : وهو أن موسى عليه السلام تربى في مصر في كنف الوحدانية، ونشأ في أعقاب المعركة بين آتون وأمون ، واستعد للنبوة في هذه البيئة الموحدة فعلم بنى إسرائيل كيف يوحدون الله ويعظمون صفاته وآلاءه . وكان خروج بنى إسرائيل فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، أى في الجيل التالى لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية .. واسترسل فرويد في تقديراته - وهو من بنى إسرائيل - حتى ظن أن موسى عليه السلام من دم مصرى ، وليس من اللاويين كما جاء في العهد القديم .

لكن المحقق أن بنى إسرائيل قد أخذوا كثيراً من عقائد المصريين وشعائرتهم قبل عهد إخناتون بعدة قرون ، وبعده بعدة قرون .

إلا أن هذه الدعوة - دعوة إخناتون - كانت صحوة وجيزة تبعها نكسة سريعة من جراء الأحداث السياسية التى أحاطت بالدولة ، ومن كيد الكهان المخلوعين في طيبة وما جاورها ، وهم كهان أمون الأقوياء الذين سلبهم إخناتون مناصبهم وحبوسهم وسيطرتهم على العرش والحراب . ولعلمهم كانوا مخفقين في كيدهم لو اصطنع هذا المصلح الكبير شيئاً من الدهاء، ولم تدفعه الحماسة الروحانية وراء كل تقدير وتدبير . لأنه هجم على الشعب في أعز العقائد عليه وهى عقيدته في أساطير عالم الأموات وشعائر الإله أوزيريس رب المغرب والخلود . فأنكر سلطان أوزيريس على الأرواح ، وجرده من قدرة الحكم عليها بالعقاب أو العذاب . فلم يؤمن ببحيم أوزيريس ولا ببحيم غيره ، وبشر الناس بحياة خالدة كحياة الأطياف... تحياها الروح بين الهدوء في ظلمة الليل واستقبال الضياء من وجه آتون . ولهذا بقيت عبادة أوزيريس وإيزيس بين المصريين كما بقيت بين اليونان والرومان وانطوت أيام آتون بانطواء نبي آتون .

الهند

ترجع الديانة الهندية القديمة إلى أزمنة أقدم من العصر الذى دونت فيه أسفارها المعروفة بالكتب الفيدية .

ويختلف المؤرخون المختصون بالهند فى العصر الذى تم فيه هذا التدوين ، فمنهم من يرده إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، ومنهم من يرده إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد . ولكنهم لا يختلفون فى سبق الديانة الهندية لهذا العصر بزمان طويل . ومن المتفق عليه أن الديانة الهندية القديمة مزيج من شعائر الهنود الأصلاء وشعائر القبائل الآرية التى أغارت على الهند قبل الميلاد بعدة قرون . وقد كانت هذه القبائل الآرية تقيم على البقاع الوسطى بين الهند ووادى النهرين ، فاتجهت طائفة منها غرباً إلى أوربة ، واتجهت طائفة منها شرقاً إلى الأقاليم الهندية من شمالها إلى جنوبها على السواحل الغربية ، قبل أن توغل منها إلى جميع أنحاء البلاد . ويعتقد فريق من المؤرخين أن الديانة الهندية القديمة لا تخلو من قبس منقول إليها من البابلية والمصرية ، ويعلمون ذلك بتوسط الموقع الذى أقام فيه الآريون الأولون ، وأنهم لم تكن لهم فى موقعهم ذاك حضارة سابقة لحضارة مصر وبابل وآشور . فلا خلاف فى أن تاريخ الأسر المصرية أسبق من تاريخ الكتب الفيدية وأسبق من كل حضارة عرفها التاريخ للآريين ، حينما أقاموا من البقاع الآسيوية أو الأوربية .

وقد اشتملت الديانة الهندية القديمة على أنواع شتى من الآلهة التى تقدمت الإشارة إليها .

ففيها آلهة تمثل قوى الطبيعة وتنسب إليها . فيذكرون المطر ويشتقون منه اسم « الممطر » فهو الإله الذى يتوجهون إليه فى طلب الغيث . ومن هنا اسم « أندرا » إله السحاب المشتق من كلمة « أندو » بمعنى المطر أو بمعنى السحاب .

وكذلك يذكرون إله النار وإله النور وإله الريح وإله البحار ويجمعونها فى

ديانة شمسية تلتقى بأنواع شتى من الديانات .

وأقدم معانى الإله عندهم معنى « المعطى » أو ديغا Deva باعتمهم التى بقيت آثار منها فى اليونانية واللاتينية وبعض اللغات الأوروبية الحديثة . فكلمة « ديو » الفرنسية Dieu وكلمة ديتى Deity الإنجليزية ، وكلمة زيوس اليونانية القديمة ، مأخوذة من أصلها الهندى المتقدم . ويرجحون أن جوبيتير عند اللاتين - وهو « المشتري » فى اصطلاح علم الهيئة - هو مزيج من كلمة المعطى وكلمة الأب ، بمعنى أبى العطاء أو الأب المعطى للجميع ، وهما فى الهندية القديمة ديوس بيتار Dyaus-petar ... إذ لا تزال كلمة الأب فى أكثر اللغات الأوروبية متفرعة من هذا الجذر الأصيل على تعدد اللهجات ومخارج الحروف .

واشتملت البرهمية القديمة على عبادة الأسلاف كما اشتملت على عبادة المظاهر الطبيعية . فتقدّس الملك عندهم إنما هو تقليد موروث من تقدّس جد القبيلة ، تحول إلى تقدّس الرئيس الأكبر فى الدولة ، بعد أن تحولت القبيلة إلى الأمة ، ويحسب العلامة إليوت سميث - كما قال فى كتابه « المبادئ » The Beginning : « أن مراسم تقدّس الملك التى لا تزال مرعية فى جوار الهند كانت تحاكي مراسم قصة الخليقة كما تخيلها المصريون ... فلم يكن حق الملك مستمدّاً من الجلوس على العرش أو من البناء بالمملكة التى تنقل إليه حقوقه الملكية ، ولكنه يتولى هذا الحق بعد تقدّسه فى حفل يمثل قصة الخليقة ، وكأنهم يعنون بهذا أن الملك يستمد من ذلك التقديس قدرته على الخلق ومنح الحياة ، وهى قدرة لا غنى عنها لاضطلاعها بالفرائض الملكية » .

وقصة الخليقة فى الهند تشبه قصة الخليقة المصرية فى أكثر من صيغة واحدة من صيغها العديدة : فالحياة خرجت من بيضة « ذهبية » كانت تطفو على الماء فى العمام ، والإله الأكبر كان ذكراً وأنثى فهو الأب والأم للأحياء كما جاء عن « رع » فى بعض الأساطير المصرية ، وبناء العالم من صنع بناء ماهر فى أساطير مصر والهند على السواء ، وتتفق مصر وبابل والهند على أن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة .. فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور إلى حيز الوجود .

وتعززت في الهند عبادة « الطواطم » بعقيدتهم في وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول .

فعبدوا الحيوان على اعتباره جداً حقيقياً أو رمزياً للأسرة ثم للقبيلة. ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى في كل موجود أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه، وآمنوا بتناسخ الأرواح فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً أو صديقاً عائداً إلى الحياة في محنة التفكير والتطهير . فعاشت عندهم الطوطمية في أرق العصور كما عاشت في عصور الهمجية ، لهذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم .

لكنهم خلصوا كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد ، وإن اختلفوا في المنهج الذي سلكوه . فلم يكن إيمانهم به على الأساس الذي قام عليه إيمان الشعوب الأخرى بالتوحيد .

فهم قد بدءوا بإبطال جميع المظاهر ، فنسبوا إليها التعدد والاختلاف ؛ لأنها تتكرر وتزول ، وتستر من ورأها الحقيقة الأبدية التي لا تتكرر ولا تزول ، وتلك هي حقيقة القضاء والقدر ، التي تقدر للآلهة وتقضى عليهم كما تقدر لسائر الموجودات وتقضى عليها في أجلها المحدود .

وهنا ذهب حكماءهم إلى مذهبين غير متفقين : فبعضهم تمثل تلك الحقيقة إلهاً واحداً قريباً من الإله الواحد في أكثر ديانات التوحيد . قال ماكس مولر الثقة الحجة في اللغات الآرية : « أيّاً كان العصر الذي تم فيه جمع الأناشيد المسطورة في الرجشيدا فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذي لا هو بذكر ولا بأنثى ولا تحده أحوال التشخيص وقيود الطبيعة الإنسانية ، وارتفع شعراء الهيدا في الواقع إلى أوج في إدراكهم لكننه الربوبية لم يترق إليه مرة أخرى غير أناس من فلاسفة الإسكندرية المسيحيين ، ولكنه فوق هذا لا يزال أرفع وأعلى مما يطيف بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين » .

وتبدو مداواة هؤلاء البراهمة لمذهب الموحد المؤمن « بالذات الإلهية » من إيمانهم بالخلاص على يد الله ، وبقاء فريق منهم بعد ذلك بمئات السنين ينقسمون

في شرح سبيل الخلاص على نهجهم الذي لا نستغربه من قوم يعظمون الحيوان ذلك التعظيم . ففهم من يسمى سبيل الخلاص بالسبيل القرديّة ومنهم من يسميها بالسبيل القطية ، ويقصدون بهذه التسمية أن الله يخلص الإنسان إذا تشبث به كما يتشبث ولد القرد الصغير بأمه وهي تصعد به إلى رؤوس الأشجار ، أو أن الله على اعتقاد الآخرين يخلص الإنسان وهو مغمض العينين مستسلم للقضاء ، كما يستسلم ولد القطة لأمه وهي تحمله مغمضاً من مكان إلى مكان .

فالله الذي يخلص عباده هذا الخلاص أو ذاك هو « ذات » على كلتا الحالتين يتشبث بها العابد أو يستسلم لقضائها فتسهر عليه وإن غفل عنها .

ويتسمى هذا الإله بثلاثة أسماء على حسب فعله في الوجود . فهو « برهما » حين يكون الموجد الخالق ، وهو فشنو حين يكون الواقي المحافظ ، وهو سيثا حين يكون المهلك المادم . ولا نهاية للتداخل ولا للترجيح بين هذه الأسماء والوظائف والأفعال ، على تباين النحل والملل والأجيال .

أما الفريق الثاني فالحقيقة الأبدية عنده معنى ليس له قوام من « الذات » الواعية، وإنما هو قانون يقضى بتلازم الآثار والمؤثرات، ويقابل الاعتقاد بالقضاء والقدر عند المؤمنين بالأديان الكتابية، ونعني بها الإسرائيلية والمسيحية والإسلام. إلا أنه قضاء يسرى على الآلهة كما يسرى على البشر ، ويتغلغل في طبائع الخالقين كما يتغلغل في طبائع المخلوقات ، وحكمه الذي لا مرد له هو حكم التغير الدائم والفناء ، وحكم الإعادة والإبداء .

ولا نحسب أن أحداً من الأقدمين بلغ في إعظام الأكوان المادية مبلغ البراهمة ، سواء في تقدير السعة أو تقدير القدم أو تقدير البقاء . فإن أناساً من الأقدمين لم يجاوزوا بعمر الأكوان المادية بضعة آلاف سنة . وأناساً منهم جعلوا لها خلقاً واحداً وفناءً واحداً خلال أجل مقدور من القرون . ولكن البراهمة جعلوا له أربعة أعمار تساوي اثني عشر ألف سنة إلهية وأربعة ملايين وثلاثمائة وعشرين ألف سنة شمسية ، وبعض المتأخرين يضاعفها ألف ضعف ويقولون جميعاً إنها دورة واحدة من دورات الوجود، وإن هذه الدورة هي يوم يقظة يقابله ليل

هجوع ، ينقضى بين كل دورة فنية وكل دورة آخذة في الابتداء .
والقانون الأبدى Karma يقلب هذه الأدوار فيبدها ويحفظها ويفنيها ثم
يختم هذا النهار بإيل من ليالى الهجوع ، ثم يعود فيطاع النهار كرة أخرى دواليك
إلى غير انتهاء ، لأنه لا انتهاء للزمان .

ويتضاءل الإنسان الفانى كلما تعاضم هذا الفناء الخالد أو هذا الخلود الذى
يتجدد بالفناء ، فامس للإنسان حساب كبير فى هذه الحسبة الأبدية . لأنه
« رقم » ضئيل يغرق فى طوفان الأرقام التى لا يحيط بها العد والإحصاء .
وعلى هذه القاعدة قامت البوذية التى بشر بها البوذا جوتاما قبل الميلاد
المسيحى بحوالى خمسة قرون .

فقبل « جوتاما » بمئات السنين كان نساك الهند يتغنون بمضامين النشيد
المرهوب الذى ترجمه ماكس مولار إلى الإنجليزية وجاء فيه عما كان قبل أن
يكان أو يكون :

« حينذاك لم يكن ما وجد أو ما لم يوجد ، ولم يكن ما تثبته ولا ما تنفيه
« لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء

« وماذا عساها تنطوى عليه ؟ أين كانت وأين قرارها ؟ أهى هاوية الماء التى
ليس لها من قرار ؟

« لم يكن موت ، فلم يكن خلود

« لم يمكن ما يموت فلم يكن ما ليس يموت

« ولم يكن ثمة نهار ولا ليل . ولم يكن إلا "الأحد" يتنفس حيث لا أنفاس .
ولا شىء سواه .

« وكان البدء فى ظلام : عيلم بلا ضياء

« ومن البذرة فى تلك القشرة قام "الأحد" بجراحة الحياة

« وانصر الحب حين نبتت البذرة من لباب العقل السرمدى ، وناجى

الشعراء قلوبهم فتيبنوا بالحكمة ما هو مما ليس هو . فقد نفذ شعاع القلب خلال

ما هنالك ، فإذا نظروا فوق الأحد وماذا نظروا دونه ؟ كل ما هنالك حملة

لبذور . قوى : قوة من أدنى ومشيفة من أعلى . ولا أحد يدرى . ولا من يعلم من

أين جاء ما جاء . فإنما جاءت الأرباب بعد ذلك . فمن إذن يعلم ما جرى ؟ أهو الذى حدثت منه الخليقة ؟ لعل الذى يعرفه "أحد" واحد فى أعلى عليين . ولعله لا يدري كذاك » .

* * *

وقبل « جوتاما » آمن البرهميون بالدورة فى وجود الكون والدورة فى وجود الإنسان . فالكون يتجدد حلقة بعد حلقة ، والإنسان يتقل فى جسد بعد جسد ، وسلسلة الأكوان ليس لها انتهاء ، وسلسلة الحياة الإنسانية قد تنهى إلى السكينة أو الفناء . فالبوذية إنما قامت على أساس البرهمية فى كل عقيدة من عقائد الأصول . وإنما تميزت البوذية بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان ، فأخرجتها من حجابها المكنون فى المحاريب إلى المدرسة والبيت وصفوة المريدين ، ولا تعتبر البوذية إضافة فى صميم العقائد الدينية بل إضافة فى آداب السلوك وفلسفة الحياة ، وإضافة فى عرض الآراء على غير المستأثرين بها قديماً من سدنة الهيكل والمحراب .

وخلاصة الفلسفة التى أتى بها البوذا جوتاما هى تقريره هذه المبادئ الأربعة وهى : « أولاً » أن هناك عذاباً وشقاءً ، و « ثانياً » أن هناك سبباً للعذاب والشقاء ، و « ثالثاً » أن هذا السبب قابل للزوال ، و « رابعاً » أن وسيلة الانتهاء إلى هذه الغاية موجودة لمن يختار .

أما سبب الشقاء فهو الجهل الذى جعلنا نتعلق بالأوهام وننسى لباب الأمور ، أو نتعلق بالعرض ونعرض عن الجوهر الأصيل .

والعرض هو كل ما يزول ويتغير ، وهو من شر وفساد . وكل ما نحسه هو عرض تشمله لعنة الزوال . فما من شىء ثمَّ « يكون » بل كل شىء يصير ولا يكف عن التغير . أو كما قال : « إن الناس يؤمنون بالثنائية ، فيؤمنون بأن الشىء إما كائن وإما غير كائن . ولكن الناظر إلى الأمور بعين الصدق يعلم أن الرأيين طرفان متطرفان ، وأن الحقيقة وسط بين الطرفين » .

وعلى هذا النحو ينكر البوذا وحدة « الشخصية الإنسانية » لأنها لا تتجاوز أن تكون تلاحقاً مستمراً للأحاسيس يبدو لنا كأنه حزمة مضمومة فى كيان

واحد . ومفسروه في العصر الحديث يمثلون لذلك بشر يربط الصور المتحركة الذي يلوح لنا شيئاً واحداً وهو خطفة بعد خطفة من الألوان والظلال .

وإذا كان الشقاء في التطرف بالحس إلى التقيضين ، فالخلاص من الشقاء لا يتأتى بغير الاعتدال بين كل طرفين ، وبهذا نमित عنا غشاوة الخداع الذي يترامى على ظاهر الأشياء للنفاذ إلى ما وراءها من سر الوجود .

فلا استغراق في إرضاء الحس ولا استغراق في قمعه وتجريده ، بل توسط بين الغائيتين في أمور الحياة الثمانية ، وهي الفهم والعزم والكلام والسلوك والمعيشة والعمل والتأمل والفرح .

فالفهم طرفاه التصديق بكل ما يقال وإنكار كل ما يقال . والوسط بينهما التمييز بين الباقي والزائل والظاهر والباطن والثابت والذي ليس له ثبوت .

والعزم طرفاه التفاهت والإهمال . والوسط بينهما إرادة الحكمة متى تبين السبيل إليها بالفهم الصحيح .

والكلام منه المهجور ومنه المطروق . والوسط بينهما قول الصدق وصون اللسان عن العيب والنميمة والتمحال .

والسلوك طرفاه المحاباة مع الغرض والإجحاف مع الغرض . والوسط قوام بين الغرضين لا ينقاد لهذا ولا لذلك .

والمعيشة الصالحة قوامها أن يتخير الإنسان رزقاً حلالاً يتورع فيه عن التكسب بما يضر الآخرين .

والعمل الصالح أن يعرف ما يبتغيه ويقيس طاقته على مراده ويلتزم في كل ما يريد جادة الرشد والحكمة والإنصاف .

والتأمل الصالح سلام العقل وصفاء البصيرة ونبذ الوهم والعكوف على الحق البريء من النزعات .

والفرح الصادق هو فرح الرضوان الذي يتاح للإنسان في هذه الحياة فيبلغ به ملكوت « الرقانا » الأرضية في انتظار الرقانا الصمدية ، وهي السكينة أو الفناء ، وبينها وبين العدم فرق كبير . لأنها هي وجود يفنى في وجود ، ويفسرها بعض العصريين من أذكىاء البوذيين بفناء ألوان الطيف في البياض الناصع الذي

ليس له لون ، وهو ملتقى جميع الألوان .
 بهذه الآداب ينجو الإنسان من رباط ذلك الدولاب الدائر بالولادة والموت
 والتجدد في حياة بعد حياة وجمان وراء جثمان ، فيدخل في « الثرقانا » ولا يولد
 بعد ذلك ولا يموت .

وحكمه في هذا المصير حكم الأرباب والملائكة وحكم السموات والأرضين .
 فكلها خاضع لقانون القضاء والقدر الذى لا فكاك منه لموجود ، كلها عرضة
 للتفكير والتظهير والتحول والتغيير ، ثم للذهاب في غمرة الفناء الأخير .
 وموضع التناقض في هذه الفلسفة أنها تنكر « الشخصية الإنسانية »
 ولا تعترف بالذات أو بالروح وهى مع هذا تؤمن بتناسخ الأرواح وثبوت شيء
 في الإنسان يبقى على التنقل بين الأجساد والدورات .

وأنها تؤمن بالكل أو « المطلق » الصمدى الوجود ، ثم تنفى عنه الذات كما
 تنفيها عن الإنسان . مع أن الكل بغير ذات لا يكون كلاً بمعنى من معانى الكلية
 ولكنه شتات من أجزاء متفرقات .

وعلىنا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية . لأنهم
 يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية على اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين
 والمعاصرين .

فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء ، وزعموا أنها « جرأة العقل الكبرى » في
 مواجهة المشكلة الكونية ، وأنها الخطوة المقتحمة التى لم يذهب وراءها ذو عقيدة
 في مطاوح التأمل والإقدام .

لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف ، فها هى إلا جرأة
 حسية في أقصى ما تطوحت إليه من الفروض والأظانين ، وما البوذية كلها إلا
 تمللاً من وطأة الحس والجسد ، ولا سعادتها القصوى إلا ضيقاً بالحس وهرباً
 منه إلى الفناء أو « اللاوعى » على أحسن تقدير .

والمحسوس عندها شامل للمعقول ، والكائن بحق الحس عندها شامل للكائن
 بحق العقل وحق الوعى وحق الذات .

والآلهة عندها تأتي في المرتبة التالية بعد مرتبة الأكوان ، وما ارتفعت الأكوان عندها إلى هذه المرتبة إلا بأنها هي المحسوس ، وهي أول ما يفاجئنا قبل أن نفكر وقبل أن نتأمل وقبل أن ندين باعتقاد .

نعم إنها قد مدت نطاق الأكوان في الزمان والفضاء مدداً قصر عنه المتدينون الأقدمون في معظم الأمم والأقطار .

ونعم إنها نفذت وراء الظواهر فتجاوزتها إلى ظواهر أعم منها وأبقى ، فكان البرهميون يجزمون بأن الشمس لا تغيب عن الفضاء حين تغرب في المساء ، يوم كان الأقدمون يحسبونها تهلك في مغربها أو يحسبونها تحجب وراء الجبال أو تتوارى بما تخيلوه من ضروب الحجاب .

ولكنها مدت نطاق الأكوان بحسية كبيرة لا بالخروج من الحسية والجرأة عليها ، واختصرت الظواهر بالإقلال منها بعد تكثيرها ولم تردها آخر الأمر إلى ظاهرة واحدة ، ولا إلى عقل تتساوى فيه هذه الظواهر في عنصر التجريد .

والبوذيون المعاصرون يسوِّغون تجريد « الكل » من الذات ؛ أو تجريد الإله الأعظم من الذات ، بأن الذات شبيهة إنسانية نشأت من تخيل الإنسان كل موجود على مثاله ومنحاه .

ولكن تخيل الإنسان طبقة أعلى من تخيل الإله مجموعة من هذه الأكوان البكماء ، وكل ما يقولونه عن ربوات ربوات الفراسخ التي يمتد إليها الفضاء لا تزيد على أن يكون فضاء في كل مكان . وذرةٌ واعية في نواة تعيش الألوفا منها على سن الإبرة — هي أوسع امتداداً في آفاق الوجود من أوسع فضاء لا وعى فيه . ومن راعه امتداد الفضاء ولم يرعه امتداد « الوعى » فهو يقيس العالم بالأشبار والأمطار ولا يقيسه بعمق الحياة وكنه الوجود الذي يعلم أنه وجود ، وما من فارق كبير بين وجود لا وعى له وبين معدوم .

فالبوذية فتح في ميدان التصوف أو ميدان «الوجدانيات» والفضائل الخلقية ، ولكنها ليست بالفتح الجريء في معراج الوصول إلى الكمال : كمال الإله .

للصين واليابان

أما الصين فإنها - كالمعتاد من أمة في ضخامتها وكثرة شعوبها وتراى أطرافها - قد اختبرت جميع أنواع العبادات من أدناها إلى أرقاها .
ولكنها - على كثرة العبادات التي دانت بها - لا تحسب من أمم الرسالات الدينية كمصر وبابل والهند وفارس وبلاد العرب . لأنها لم تخرج للعالم قيماً دينية تلقاها منها ، وهي باصطلاح التجارة تحسب من الأمم المستفدة في مسائل الديانات . لأنها أخذت من الخارج قديماً وحديثاً عقائد البوذية والمجوسية والإسلام والمسيحية ولم تعط أمة عقيدتها ، مع استثناء اليابان التي أخذت عنها نحلة كنفشيوس .

وأهل الصين لا يخوضون كثيراً في مباحث ما وراء الطبيعة ، ويوشك أن يكون التدين بينهم ضرباً من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة .
فأشيع العبادات بينهم عبادة الأسلاف والأبطال ، وأرواح أسلافهم مقدمة بالرعاية على جملة الأرواح التي يعبدونها ويمثلون بها عناصر الطبيعة أو مطالب المعيشة ، ولا يقدم الصينى قرباناً هو أعلى في قيمته وأحب إلى نفسه من قربانه إلى روح سلفه المعبود ، وهو يحتوى الأغذية والأشربة والأكسية والطيب ، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التي يعتقدون أنها تحتاج إلى كل شيء كانت تحتاج إليه وهي في عالم الأجساد .

والخير والشر عندهم هو ما يرضى الأسلاف أو يسخطهم من أعمال أبنائهم .
فما أرضى السلف فهو خير وما أسخطهم فهو شر . وقد يختارون فرداً من أفراد الأسرة ينوب عن جده المعبود فيطعمونه ويكسونه ويزدلفون إليه ويحسبون أن روح ابند هي التي تتقبل هذه القرابين في شخص ذلك الحفيد .

وتتمشى عبادة العناصر الطبيعية جنباً إلى جنب مع عبادة الأسلاف والأبطال . فالسما والشمس والقمر والكواكب والسحب والرياح آلهة معبودة

أكبرها إله السماء « شانج تى » ويليه إله الشمس فبقية الأجرام السماوية فالعناصر الأرضية .

وهم يتقربون إلى « شانج تى » بالذبائح ويبلغونه صلواتهم بإشعال النار على قمم الجبال ، فيعلم الإله — مما أودعه الكاهن دواخينها — فحوى الرسالة التي يرفعها إليه عباده ، ولا يحسنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان .

وإله السماء هو « الإله » الذى يصرف الأكوان ويدبر الأمور ويرسم لكل إنسان مجرى حياته الذى لا محيد عنه . وإنما يداول تركيب الوجود من عنصرين هما « ين » عنصر السكون و « يانج » عنصر الحركة . وقد يفسر عنصر السكون بالراحة والنعيم وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب . فهما بهذه المثابة يقابلان عنصري الخير والشر وإلهى النور والظلام فى الأديان الثنائية .

وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية فى القرن العاشر حين تسمى عاهل الصين باسم « ابن السماء » . ويقال إنه استعار الفكرة من كاهن يابانى أراد أن يزدلف إليه فعلمه مراسم تأليه الميكاد فى بلاده . فنقلها العاهل إلى بلاط الصين .

وأراد الفيلسوف « شوهسى » فى القرن الثانى عشر أن ينشئ بوذية صينية توافق مذهب بوذا فى أمور وتخالفه فى أمور ، فدعا إلى دين لا إله فيه ولا خلود للروح ، ووضع « لى » موضع « كارما » الهندية أو القانون أو القضاء والقدر . وسمى دولاب الزمن « تايشى » لأنه هو المحرك لجميع الكائنات ، وجعل القانون والدولاب والمادة أر « ووشى » قوام العالم ظاهره وخافيه . فالمادة تحد من القانون ، والقانون خالد لا وعى له ولا يسمع ولا يجيب ، وإنما ينشأ الوعى أو الإدراك فى الإنسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من الزناد فيخرج الشرر ثم ينطفئ فيموت ، وتزول الأرواح كما تزول الأجساد متى « نضجت » كما تنضج الثمرة فى أجلها المعلوم . وقد يبطن النضج فيطول بقاء الروح فهى إذن طيف أو شبح ، كأنها الثمرة فى حالة العفن والإهمال .

وليس لأهل الصين رسل وأنبياء بل لهم معلمون ومربون . فاسم كنفشيوس

أشهر هؤلاء المعلمين « كنج فو » وأضيفت إليه تسمية أى المعلم . وكذلك « لاو » الذى ولد قبله ولم يشتهر فى خارج الصين مثل اشتهاره يعرف بلاوتسى أى المعلم لاو . وكلاهما يبشر بالحلم والصبر والبر بالوالدين والعطف على الأقربين والغرباء ، والفرق بينهما هو فرق فى الخلق والمزاج وليس بفرق فى العقيدة والإيمان . فلأو يقول : « من كان طيباً معى فأنا طيب معه ، ومن أساء لى فأنا طيب معه كذلك . فلنجز السيئة بالحسنة ولنعمل الطيب على كل حال » . أما كنفشيوس فهو يوصى بأن نقابل السيئة بالعدل وأن نقابل الإحسان بالإحسان .

ولما مات كنفشيوس (٤٧٨ ق . م) أقاموا له الهياكل وعبدوه على سنتهم فى عبادة أرواح الأسلاف الصالحين ، وأوشكوا أن يتخذوا عبادته عبادة « رسمية » أى حكومية على عهد أسرة هان فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه فى المدارس ومعاهد التعليم ، وكانت هياكله فى الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة . ولم تنزل عبادته قائمة إلى العصور المتأخرة بل إلى القرن العشرين . فخصوه فى سنة ١٩٠٦ بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكبر « شانج تى » إله السماء لأنه فى عرفهم « ند السماء » ومن لم يؤمن اليوم ببروبيته من الصينيين المتعلمين فله فى نفسه توقيف يقرب من التأليه ، وقد جعلوا يوم ميلاده - وهو السابع والعشرون من شهر أغسطس - عيداً قومياً يحجون فيه إلى مسقط رأسه ، وينوب عن الدولة موظف كبير فى محفل الصلاة أمام محرابه .

وشعائر الدين بين أهل الصين هى شعائر الطريق أو شعائر « السلوك » وفرائض التهذيب والتثقيف ، ومحورها الحلم والسلم والتحذير من العنف والغضب والإفراط والإسراف . وليس فى تدين الصين مغالاة ولا حماسة ولا سورة من سورات الغيرة القوية والتعصب العنيف ، بل ليس شىء من ذلك فى معرض من معارض الروح القومى التى تعبر عنها الثقافة أو الفن أو الحكمة أو قواعده الأخلاق . لأن الدعة سمة عامة لمزاج القوم و « روح الأمة » . وهم متفائلون قلما يحتقون على الحياة ولا على الأحياء ، وغالب الرأى بين حكمائهم أن الإنسان

طيب بالفطرة وأن الحياة تُرضى من لا يسرف في تقاضيتها ويلحف في الطلب عليها . ولا تأتي الحماسة الدينية إلا حين يمتحن الإنسان بالشدة البالغة والحيرة الثائرة فيندفع إلى غاية الإصرار ، وينقلب من ضميره إلى أعمق الأغوار . ولا شك أن شعور النفس « بالقدرة الإلهية » يتوقف على هذه الحالات التي تتناهى إليها قدرة الإنسان . فلا جرم « يتوسط » أهل الصين في عقائدهم فيخلو لإيمانهم بالإله من ذلك العمق الذي يغوص إليه الإنسان كلما جاشت نفسه بقوة الشعور . ويظهر أن بيئة الصين لم تواجه أبناءها بالعقد النفسية ولكنها واجهتهم بتقلبات العناصر الطبيعية التي تعودت الشعوب قديماً أن تروضها بالسحر والكهانة ، فجار نصيب الإيمان بالسحر على نصيب الإيمان بالدين ، وذاع عن أهل الصين من ثم أنهم أقدر أمة على تسخير الطبيعة بالطلاسم والأرصاد .

* * *

وموقف اليابان من الرسالة الدينية كموقف الصين على الإجمال . فقد تشابهت عقائدهم في أصولها وعبادوا الأرواح والأسلاف والعناصر الطبيعية ، واستعاروا البوذية والإسلام والمسيحية على تفاوت في عدد الأتباع من كل دين ، ومزجوا ديانة الشمس بديانة الأسلاف ، فلا مخالفة بينهم في هذا إلا بإفراط أهل اليابان في تأليه صاحب العرش واعتدال أهل الصين في تقديسه كاعتدالهم في جميع الشئون .

وإذا كان لأهل اليابان سمة خصوصية في العبادات فهي أنهم اختاروا ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى حين وحدوا الأسلاف في أكبرها وأعلاها . وتلك الربة هي « اميتراسوا - اموكامى » التي لا تزال معبودة إلى اليوم .

ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها كانت ربة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ على جزيرة كيوشو وأخضعوا أهلها وطردوهم منهزمين إلى الجبال . وكان أهل كيوشو الأولون يعبدون إله الريح والمطر « سوسا - نو - وو » فهبط هذا الإله بهزيمتهم إلى المرتبة التالية لمرتبة الربة السلفية . ثم انعقد الوثام بين الفريقين بعد تناسي الإحن والترات وامتزاج القبائل الغازية والمغزوة ، فأصبح الإلهان أخوين

وأصبحت « اميتراسو » هي كبرى الأخوين .

ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون أو خلقت الإنسان ، لأنهم يعتقدون أن عهدا قد سبقته عهود مديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب ، وهذه الأرباب عندهم هي بمثابة الأرواح والملائكة والجنّة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية . ويسمون الواحد منها « كامي » . . . وهي كلمة تطلق على كل رافع خارق للعادة بالغ في القوة أو الجمال . ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمر إلى الربة الكبرى برضوان من خالق السموات والأرضين .

أما الخلق فهو منسوب عندهم إلى إله السماء « أزاناجى - نوميكوتو » وزوجته وأخته إلهة الأرض « أزانامى - نوميكوتو » . فولدا جزر اليابان وألقحها بينور الآلهة وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة هذه الآلهة . . . فكلهم في النسب الأعلى - وليس الميكاد وحده - إلهيون .

وفى إحدى الروايات الأسطورية أن ربة الأرض احترقت وهي تضع إله النار فجرد رب السماء سيفه وضرب به إله النار ، فانبعث من وميض سيفه ومن ضرباته رهب من أرباب الزواجر والثبرون والرعود . ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمى وعناصر الزرع والحياة .

وينسبون الخلق في رواية أخرى إلى « أزاناجى » وحده وهو يبحث عن رفيقة صباح . . . فن عينه اليسرى خلقت الشمس ومن عينه اليمنى خلق القمر ، ومن عطسته خلق « سوسا - نو - وو » رب الرياح والأمطار . ولكنه أعجب من بين أبنائه بالشمس دون شقيقها فخلع عليها عقداً يتلألأ بالجواهر وبوأها أرفع عرش في السماء .

فالديانة اليابانية الأصلية ديانة شمسية سلفية جمعت معنى التوحيد أولاً في إله السماء حيث تصوره أباً للخليقة بمفرده أو بمشاركة زوجه ، ثم جمعتها في الربة الواحدة على اعتبارها ربة مختارة بين أرباب .

فارس

لعل تاريخ الديانة الفارسية القديمة أهم التواريخ الدينية بين الأمم الآسيوية ، لتوشح القرابة بينه وبين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية ، وارتباطه بالتواريخ السابقة له واللاحقة به واقتباس الديانة الفارسية من غيرها واقتباس غيرها منها ، وتقدم الفكرة الإلهية على يد زرادشت صاحب الشريعة القومية في بلاد فارس وأرفع الأعلام شأناً بين دعاة المجوسية من أقدم عصورها إلى أحدثها .

فالفرس الأقدمون من السلالة الهندية الجرمانية ، وموقع بلادهم قريب من دولة بابل ، قريب من أقاليم الطورانيين ، قريب من مسالك الحضارة بين المشرق والمغرب ؛ وقد تلاقت حضارة فارس وحضارة مصر في السلم والحرب غير مرة ، وانقضى زمن طويل على الدنيا المتحضرة وهي تقرن بين المجوسية وبين الحكمة أو العلم بأسرار الطبيعة والسيطرة عليها بالسحر والمعرفة الإلهية . وكان لليهود وأبناء فلسطين وأمم العرب علاقات قديمة بالدولة الفارسية تارة والدولة البابلية تارة أخرى . فاتصل من ثم تاريخ المجوس بتاريخ اليهود والمسيحيين والمسلمين .

فالأقدمون من الفرس يلتقون مع الهند في عبادة « مترا » إله النور وتسمية الإله با « أسورا » أو إله « أهورا » وإن اختلفوا في إطلاقه على عناصر الخير والشر . . . فجعله الفرس من أرباب الخير والصلاح وجعله الهند من أرباب الشر والفساد .

والبابليون عرفوا عبادة « مترا » في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ورفعوه إلى المنزلة العلية بين الآلهة التي تحارب قوى الظلام .

واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم ، فأخذوا منهم سنة التسبيع في عدد الآلهة ، وجعلوا أورمزد على رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة وأنواع المرافق والصناعات .

ولم تخل الديانة المجوسية من عقائد الطورانيين ، لأن « زرادشت » عاش بينهم زمناً وبشرهم بدينه فاضطر إلى مجاراتهم في عباداتهم ليجاروه في عبادته ، وأدخل أرباباً لهم في عداد الملائكة المقربين . ويعتقد المجوس في بعض أساطيرهم أن « زروان » أبو الإلهين إله النور والظلام ، ولعل « زروان » هذا صنو لإله البابليين « نون » أو القدر الذي يتسلط على الآلهة كما يتسلط على المخلوقات .

وقد آمن المجوس بالعالم الآخر كما آمن به المصريون ، وآمنوا كذلك بالثواب والعقاب في الدار الآخرة ، ولكنهم قالوا بقيامة الموتى ونهاية العالم وبعث الأرواح للحساب في يوم القيامة . . . ولعلمهم جمعوا بذلك بين عقيدة الهند في نهاية العالم وعقيدة المصريين في محاسبة الروح ووزن أعمالها في موقف الجزاء .

ولم يكن اليهود يتكلمون عن « الشيطان » قبل السبي أو قبل الإقامة فيما بين النهرين ، فتكلموا عنه بعد أن شبهوه « بأهرمان » الذي يمثل الشر والفساد عند المجوس .

وفي الكتب المسيحية أن حكماء المجوس شهدوا مولد المسيح وعلموا بنبته فاهتدوا إليه بنجم في السماء .

وذكر أفلاطون زرادشت في كتاب « السيبادس » فسماه زرادشت بن أورمزد ، وقال بليبي في تاريخه الطبيعي إنه المولود الذي ضحك يوم ولادته ، وقال ديوكريستوم Dio Chrysostom إنه لا الشاعر هوميروس ولا الشاعر هزيبود بلغا مبلغ زرادشت في الإشادة بمجد « زيوس » رب الأرباب في علياء مجده . فتاريخ الديانة الفارسية عامة وتاريخ زرادشت خاصة على ارتباط وثيق بتاريخ العقائد الآسيوية وتاريخ بعض العقائد في مصر واليونان .

ولكن « زرادشت » لا يعرف له تاريخ مفصل على التحقيق ، فالمراجع اليونانية تردده إلى القرن الستين قبل الميلاد ، والمراجع العربية تردده إلى ما قبل الإسكندر بنحو مائتين وسبعين سنة . فهو على هذا قد ولد حوالي سنة ٦٦٠ قبل الميلاد وهو أصح التقديرات ، وقد اعتمده الثقات الباحثون في تاريخه

فرجحوا ، كما رجح كاسارتللى وجاكسون ، أنه ولد سنة ٦٦٠ ومات سنة ٥٨٣ قبل الميلاد .

ويقول الشهرستانى إن أباه من أذربيجان وأمه من الرى ، ويكاد يتفق المؤرخون على أنه ولد فى الناحية الغربية الشمالية من البلاد الفارسية على شاطئ نهر يسمونه فى الكتب الجوسية داريزا ويعرف أخيراً باسم أراس .
ويزعم بعض مؤرخيه أن اسمه مركب من كلمتين فى اللغة القديمة معناهما معاكس الحمل ، لأنه كان فى صباه يعبث بالجمال ، ويجعلون لهذه التسمية شأناً فى وصاياه العديدة بالإشفاق على الحيوان ، كأنه يكفر بذلك عن قسوته عليه فى صباه .

وخلاصة ما جاء به « زرادشت » من جديد فى الديانة أنه أنكر الوثنية وجعل الخير المحض من صفات الله ونزل بإله الشر إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى ، وبشر بالثواب وأنذر بالعقاب ، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد ، وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واجد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه .

وليست الجوسية كلها من تعليم زرادشت أو تعليم كاهن واحد من كهان الأمة الفارسية . فقد سبقه الفرس إلى عقائدهم فى أصل الوجود وتنازع النور والظلام ، ولكنه تولى هذه العقائد بالتطهير وحملها على محمل جديد من التفسير والتعبير .

فالجوس كانوا يعتقدون أن هرمز وأهرمن مولودان لإله قديم يسمى زروان ويكنى به عن الزمان . وأنه اعتلج فى جوفه وليدان فنذر السيادة على الأرض والسماء لأسبقهما إلى الظهور ، فاحتال أهرمن بخبثه وكيدته حتى شق له مخرجاً إلى الوجود قبل « هرمز » الطيب الكريم ، فحققت لأهرمن سيادة الأرض والسماء وعز على أبيهما أن ينقض نذره ، فأصلحه بموعده ضربه لهذه السيادة ينتهى بعد تسعة آلاف سنة . ويعود الحكم بعده لإله الخير خالداً بغير انتهاء ، ويؤذن له يومئذ فى القضاء على إله الشر وتبديد غياهب الظلام .

وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين ، وأن هرمز

طفق في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة وأهرمان غافل عنه في قراره السحيق ، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه فأشفق على نفسه من العاقبة ، وعلم أن النور يوشك أن يتشر ويستفيض ، فلا يترك له ملاذاً يعتصم به ويضمن فيه البقاء . فثار وثار معه خلائق الظلام وهي شياطين الشر والفساد ، فأحبطت سعى هرمز وملأت الكون بالحبائث والأرزاء . . وران هذا البلاء على الكون حتى كانت معركة « زرادشت » فكان البشير بانتهاء زمان وابتداء زمان ؛ ولكنه لم يجتم صراع العدوين اللدودين . بل آذن بتحول النصر من صف إلى صف ، وتراجع الشر والظلام عن مملكة الخير والنور ، وسيدوم هذا الصراع اثني عشر ألف سنة ، ينجم على رأس كل ألف منها بشير من بيت زرادشت فيعزز جحافل هرمز ويوقع النشل في جحافل أهرمن ، وتنقضي المدة فينكص أهرمن على عقبه مخلداً في أسفل سافلين لا فكاك له أبد الأبيد من هاوية الظلمات وسجن المذلة والهوان .

وتدل تسمية الإلهين دلالة واضحة على انتقال الفكرة الإلهية طبقة طبقة من صورة التجسيم إلى صورة التنزيه . فإن هرمز مأخوذ من « أهورا » بمعنى السيد و « مازداو » بمعنى الحكيم ، وأهرمن مأخوذة من « أنجرو » بمعنى السيئ وماينوش بمعنى الفكر والروح ، والمعنيان معاً من عالم الفكر المجرد أو القريب من التجريد . ثم أصبحت كلمة أورمزد مرادفة لروح القدس وكلمة أهريمان مرادفة لروح الشر أو روح الأذى والفساد ، وقيل في مجمل الأساطير المجوسية إن أهريمان إنما هو فكرة سيئة خطرت على بال زروان فكان منها إله الظلام .

ويجئ إلينا أن زرادشت كان خليقاً أن يسمو بعقيدة المجوس إلى مقام أعلى من ذلك المقام في التنزيه ، وأن يسقط بأهرمن من منزلة الند إلى منزلة المارد المطرود ، لولا أن وجود « أهرمن » كان لازماً لبقاء الكهانة الفارسية في عهد المهن والهزائم التي منيت بها الدولة وتجرعت فيها الأمة غصص الذل والانكسار . فلو قال المؤابذة للمؤمنين بهرمز إنه هو الإله المتفرد في الكون بالتصريف والتقدير فكفروا بدينهم وحراروا في أمرهم ، ولكنهم يكبرون من قوة أهرمن ويجعلون انتصاره

عقوبة للناس على تركهم للخيرات وحبهم للشرور ، ثم يبشرونهم بغلبة الإله الحكيم الرحيم بعد الهزيمة ، فتهدأ وساوسهم إلى حين .

* * *

على أن « زرادشت » قد استخلص من أختلاط المحوسية عقيدة وسطاً بين العقيدة الوثنية الأولى والعقيدة الإلهية الحديثة . سواء في تصحيح الفكرة الإلهية أو مسائل الأخلاق ومسائل الثواب والعقاب .

فإنه في مذهب زرادشت موصوف بأشرف صفات الكمال التي يترقى إليها عقل بشرى يدين على حسب نشأته بالثنائية وقدم العنصرين في الوجود .

فإنخير عند زرادشت غالب دائم ، والشّر مغلوب منظور إلى أجل مسمى ، وما زال « أهرمن » يهبط في مراتب القدرة والكفاية على هذا المذهب حتى عاد كالمخلوق الذي ينازع الخالق سلطانه ، ولا محيص له في النهاية من الخلدان .

وفي « الزندقستا » يقول زرادشت إنه سأل هرمز : « يا هرمز الرحيم ! صانع العالم المشهود . يا أيها القدس الأقدس : أي شيء هو أقوى القوى جميعاً في الملك والملكوت ؟

فقال هرمز : إنه هو اسمي الذي يتجلى في أرواح عليين . فهو أقوى القوى في عالم الملكوت .

فسأله زرادشت أن يعلمه هذا الاسم فقال له إنه " هو السر المسئول " وأما الأسماء الأخرى فأولها هو " واهب الأنعام " وثانيها هو المكين ، وثالثها هو الكامل ، ورابعها هو القدس ، والاسم الخامس هو الشريف ، والاسم السادس هو الحكمة ، والاسم السابع هو الحكيم ، والاسم الثامن هو الخبرة ، والاسم التاسع هو الخبير ، والاسم العاشر هو الغنى ، والاسم الحادى عشر هو الغنى ، والاسم الثانى عشر هو السيد ، والاسم الثالث عشر هو المنعم ، والاسم الرابع عشر هو الطيب ، والاسم الخامس عشر هو القهار ، والاسم السادس عشر هو محق الحق ، والاسم السابع عشر هو انبصر . والاسم الثامن عشر هو الشانى . والاسم التاسع عشر هو الخلاق ، والاسم العاشر عشر هو

”مزدا“ أو العليم بكل شيء .

وقد حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان وقدم النار على أنها هي أصنى وأظهر العناصر المخلوقة ، لا على أنها هي الخلاق المعبود . وقال إن الخلائق العلوية كلها كانت أرواحاً صافية لا تشاب بالتجسيد ، فخيرها الله بين أن يقصمها من منال « أهمرن » أو يلبسها الجسد لتقدر على حربه والصمود في ميدانه ، لأن عناصر الفساد لا تحارب بغير أجساد . فأبت أن تعصم بمعزل عن الصراع القائم بين هرمز وأخيه ، واختارت التجسد لتؤدي فريضة الجهاد في ذلك الصراع . ويتخيل « زرادشت هرمز » أو أورمز أو « أهورا مزدا » أو يزدان — على اختلاف اللهجات في نطقه — مستوياً على عرش النور محفوظاً بستة من الملائكة الأبرار ، تدل أسمائهم على أنهم صفات إلهية كالحق والخلود والملك والنظام والصلاح والسلامة ، ثم استعيرت لها سمات « الذوات » بعد تداول الأسماء أو تداول الأبناء عما تفعله وما تؤمر به وما تتلقاه من وحى الله .

وتفويض أقوال « زرداشت » كلها باليقين من رسالته واصطفاء الله إياه للتبشير بالدين الصحيح والقضاء على عبادة الأوثان . ومن أمثلة هذا اليقين قوله : « أنا وحدي صفيك الأمين ، وكل من عداى فهو عدو لى ميين » . وإن الله أودع الطبائع عوامل الخير جميعاً ، فإن هي حادت عن سواء السبيل كان لإرسال الرسل للتذكير والتحذير آخر حجة لله على الناس . وإن زرادشت هو هذه الحجة التي أبرزها الله إلى حيز الوجود لتهدى من ضل وتذكر من غفل وتستصلح من فيه بقية للصلاح ، وكلما انقضى ألف عام برز إلى حيز الوجود خليفة له من سلالته ، ولكن الأرواح التي تحف بالعرش هي التي تحمل بذرته إلى رحم عذراء تلهمها تلك الأرواح أن تتطهر في تلك الساعة بالماء المقدس في عين صافية مدخرة في ناحية من الأرض ليومها الموعود .

ويتخيل زرادشت أنه يناجى هرمز ويسمع جوابه ويسأله سؤال المتعلم المسترشد لمرشده وهاديه . فيناديه : رب ! هب لى عونك كما يعين الصديق أخلص صديق . ويسأله ، رب ألا تنبئني عن جزاء الأخيار ؟ أيجزون يا رب بالحسنة قبل

يوم المعاد؟ أو يسأله: من أقر الأرض فاستقرت ورفع السماء فلا تسقط؟ ومن خلق الماء والزرع؟ ومن أبلج اللحم للرياح سحب الفضاء وهي أسرع الأشياء؟ ولا يبعد أنه كان من أصحاب الطبائع التي تغيب عن الوعي أو تسمع في حالة وعيها أصواتاً خفية من هاتف ظاهر أو محجوب، كما روى عن سقراط وأمثاله من المهويين والمهمين.

* * *

ورواية الخليفة في مذهب زرادشت أن هرمز خلق الدنيا في ستة أدوار . فبدأ بخلق السماء ، ثم خلق الماء ، ثم خلق الأرض ، ثم خلق النبات ، ثم خلق الحيوان ، ثم خلق الإنسان .

وأصل الإنسان رجل يسمى « كيومرث » قتل في فتنة الخير والشر فنبت من دمه ذكر يسمى ميشة وأنثى تسمى ميشانة ، فتزوجا وتناسلا وساغ من أجل ذلك عند المحوس زواج الأخوين .

ويفرق المحوس بين الخلائق جرياً على مذهبه في اشتراك الخلق بين خالق الطيبات وخالق الخبائث ، أو بين إله النور وإله الظلام . فالأحياء النافعة من خلق أورمز كالثور والكلب والطير البريء ، والأحياء الضارة من خلق أهرمن كالحية وما شابهها من الحشرات والهوام .

والناس محاسبون على ما يعملون . فكل ما صنعه من خير أو شر فهو مكتوب في سجل محفوظ . وتوزن أعمالهم بعد موتهم ، فمن رجحت عنده أعمال الخير صعد إلى السماء ، ومن رجحت عنده أعمال الشر هبط إلى الهاوية ، ومن تعادلت عنده الكفتان ذهب إلى مكان لا عذاب فيه ولا نعيم ، إلى أن تقوم القيامة ويتطهر العالم كله بالنار المقدسة فيرتفعون جميعاً إلى حضرة هرمز في نعيم مقيم .

وتوزن الأعمال عند قنطرة تسمى قنطرة « شنقاد » تتوافى إليها أرواح الأبرار والأشرار على السواء بعد خروجها من أجسادها . فيلقاها هناك « رشنود ملك العدل وميترا رب النور وينصبان لها الميزان ويسألانها عما لديها من الأعذار والشفاعات » ثم يفتحان لها باب النعيم أو باب الجحيم .

ونعيم الجوس من جنس الحسنات التي تجزى بذلك النعيم . لأن الجوس لا يستحبون الزهد في الحياة ولا يصدفون عن المتاع المباح . فن عاش في الدنيا عيشة راضية وكسب رزقه بالعمل الصالح وأنشأ أبناءه نشأة حسنة فجزاؤه في النعيم رغد العيش وجمال السميت وطيب المقام بين الأقرباء والأصدقاء : ويسقى من لبن بقره مقدسة درها غذاء الخلود . ومن كسب رزقه من السحت والحرام فجزاؤه في الجحيم عيشة ضنك وألم كآلم الجوع والعري والذل والاعتراب عن الأحباب .

* * *

وهذه الخلاصة ترسم لنا اتجاه مذهب « زاردشت » ولكنها لا ترسم لنا شعب الجوسية التي يشتبك بها هذا المذهب في مواضع ويفترق عنها في مواضع أخرى . وقد أجمل الشهرستاني بيان هذه المذاهب في كتابه الملل والنحل فقال في فصل مطول عن الجوس وأصحاب الاثنيين والمناوية وسائر فرقهم الجوسية : « . . . كانت الفرق في زمان إبراهيم الخليل راجعة إلى صنفين : أحدهما الصابئة والثانية الحنفاء . فالصابئة كانت تقول إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط . لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب ، والجسماني بشر مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب يماثلنا في المادة والصورة . قالوا : (ولئن أطعم بشرأ مثلكم إنكم إذأ لخاسرون) . والحنفاء كانت تقول إنا نحتاج في المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر تكون درجته في الطهارة والعصمة والتأيد والحكمة فوق الروحانيات ، يماثلنا من حيث البشرية ويميزنا من حيث الروحانية ، نيتلني الوحي بطرف الروحانية ويلقي إلى نوع الإنسان بطرف البشرية ، وذلك قوله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ) . وقال جل ذكره : (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا) . ثم لما لم يتطرق للصابئة الاقتصار على الروحانيات البحتة والتقرب إليها بأعيانها والتقي منها بذواتها فرعت جماعة إلى هياكلها وهي السيارات السبع وبعض الثوابت . فصابئة الروم مفزعها السيارات ، وصابئة الهند مفزعها الثوابت ، وربما نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمح

ولا تبصر ولا تغنى عن الإنسان شيئاً . والفرقة الأولى هم عبدة الكواكب والثانية هم عبدة الأصنام ، وكان إبراهيم مكلفاً بكسر المذهبين على الفرقتين وتقرير الحنيفية السمحة السهلة . . . »

ثم قال عن الثنوية إنهم « . . . أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضرر والصلاح والفساد ، ويسمون أحدهما النور والثاني الظلمة ، وبالفارسية يزدان وأهرمن . ولهم في ذلك تفصيل مذهب ، ومسائل الجوس كلها تدور على قاعدتين : أحدهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية سبب خلاص النور من الظلمة ، وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معاداً . . . إلا أن الجوس الأصليين زعموا أن الأصليين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين . بل النور أزلى والظلمة محدثة ، ثم لهم اختلاف في سبب حدوثها : أمن النور حدث والنور لا يحدث شرّاً جزئياً ، فكيف يحدث أصل الشر؟ أم شيء آخر ولا شيء يشترك مع النور في الإحداث والقدم؟ وبهذا يظهر خبط الجوس ، وهؤلاء يقولون : المبدأ الأول في الأشخاص كيومرث ، وربما يقولون زروان الكبير ، والنبي الآخر زرادشت ، والكيومرثية يقولون : كيومرث هو آدم عليه السلام ، وقد ورد في تاريخ الهند والعجم : كيومرث آدم ويخالفهم سائر أصحاب التواريخ . ثم قال عن الكيومرثية إنهم . . . » أثبتوا أصلين : يزدان وأهرمن ، وقالوا : يزدان أزلى قديم وأهرمن محدث مخلوق ، قالوا : إن يزدان فكر في نفسه أنه لو كان لى منازع كيف يكون؟ وهذه الفكرة رديئة غير مناسبة لطبيعة النور . فحدث الظلام من هذه الفكرة . وسمى أهرمن . وكان مطبوعاً على الشر والفتنة والفساد والضرر والإضرار ، فخرج على النور وخالفه طبيعة وقولا ، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة ، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا على أن يكون العالم السفلى خالصاً لأهرمن وذكروا سبب حدوثه ، وهؤلاء قالوا سبعة آلاف سنة ثم نحى العالم ويسلمه إلى النور ، والذين كانوا في الدنيا قبل الصالح أبادهم وأهلكهم : ثم بدأ برجل يقال له كيومرث وحيوان يقال له ثور . فقتلها فنت من مسقط ذلك الرجل ريباس وخرج من أصل ريباس رجل يسمى ميشة

وامرأة اسمها ميشانة وهما أبوا البشر ، ونبت من مسقط الثور الأنعام وسائر الحيوانات ، وزعموا أن النور خير الناس وهم أرواح بلا أجساد بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن وبين أن يلبسهم الأجساد فيحاربوا أهرمن ، فاختروا لبس الأجساد ومحاربة أهرمن على أن يكون لهم النصرة من عند النور والظفرة بجنود أهرمن وحسن العاقبة ، وعند الظفر به وإهلاك جنوده يكون الغاية : فذاك سبب الامتزاز وذاك سبب الخلاص . . . »

وقال عن الزروانية : « إن النور أبدع أشخاصاً من نور كلها روحانية نورانية لكن الشخص الأعظم الذى هو زروان شك فى شىء من الأشياء فحدث أهرمن الشيطان من ذلك الشك ، وقال بعضهم : لا بل إن زروان الكبير قام فزرم تسعة آلاف وتسعمائة وتسعين سنة ليكون له ابن . فلم يكن . ثم حدث فى نفسه هم من ذلك وقال : لعل هذا العالم ليس بشىء ، فحدث أهرمن من ذلك الهم الواحد وحدث هرمز من ذلك الهم ، فكانا جميعاً فى بطن واحد . وكان هرمز أقرب من باب الخروج . فاحتال أهرمن الشيطان حتى شق بطن أمه فخرج قبله وأخذ الدنيا ، وقيل إنه لما مثل بين يدى زروان فأبصره ورأى ما فيه من الخبث والشر والفساد أبغضه فلعنه وطرده فضى واستولى على الدنيا . وأما هرمز فبقى زماناً لا يدله عليه وهو الذى اتخذه قوم رباً وعبدوه لما وجدوا فيه من الخير والطهارة والصلاح وحسن الأخلاق ، وزعم بعض الزروانية أنه لم يزل كان مع الله شىء ردىء إما فكرة رديئة وإما عقوبة رديئة ، وذلك هو مصدر الشيطان ، وزعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن وكان أهلها فى خير محض ونعيم خالص فلما حدث أهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن ، وكان بمعزل من السماء . فاحتال حتى خرق السماء ، وصعد ، وقال بعضهم كان هو فى السماء والأرض خالية عنه فاحتال حتى خرق السماء ونزل إلى الأرض بجنوده كلها فهرب النور بملائكته واتبعه الشيطان حتى حاصره فى جنته وحاربه ثلاثة آلاف سنة لا يصل الشيطان إلى الرب تعالى ، ثم توسطت الملائكة وتصالحا على أن يقيم إبليس وجنوده فى قرار الضوء تسعة آلاف سنة بالثلاثة آلاف التى قاتله فيها ثم يخرج

إلى موضعه . ورأى الرب تعالى - على قوهم - الصلاح في احتمال المكروه من إبليس وجنوده ، ولا ينقص الشر حتى تنقضى مدة الصلح ، فالناس في البلايا والفتن والخزايا والحن إلى انقضاء المدة . . . »

وقال عن الزرادشتية : « . . . زعموا أن الله عز وجل خلق في وقت ما في الصحف الأولى والكتاب الأعلى من ملكوته خلقاً روحانياً فاما مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مشيئته في صورة من نور متألئ على تركيب صورة الإنسان ، وأحف به سبعين من الملائكة المكرمين وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض وبنى آدم غير متحرك ثلاثة آلاف سنة ثم جعل روح زرادشت في شجرة أنشأها في أعلى عليين وغرسها في قلة جبل من جبال أذربيجان يعرف بأسموية ضر ، ثم مازج شبح زرادشت بلبن بقرة فشربه أبو زرادشت فصار نطفة ثم مضغة في رحم أمه ، فقصدها الشيطان وغيرها فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالات على برئها فبرئت . ثم لما ولد زرادشت ضحك ضحكة تبينها من حضر واحتالوا على زرادشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر ومدرجة الخيل ومدرجة الذئب ، وكان ينتهض كل واحد منهم بحمايته من جنسه ، ونشأ بعد ذلك إلى أن بلغ ثلاثين سنة فبعثه الله نبياً ورسولاً إلى الخلق فدعا « كشتاسف » الملك فأجابه إلى دينه ، وكان دينه عبادة الله والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث ، وقال : النور والظلمة أصلان متضادان وكذلك يزدان وأهرمن ، وهما مبدأ موجودات العالم . وحصلت تراكيب من امتزاجهما وحدثت الصور من التراكيب المختلفة ، والبارى تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة كما قالت الزروانية . . لكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ، ولو لم تميزها لما كان وجود للعالم ، وهما يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب النور والظلمة والخير الشر ثم يتخلص الخير إلى عالم والشر إلى عالم وذلك هو سبب الخلاص ، والبارى تعالى هو مزجها وخطها ، وربما جعل النور أصلاً وقال إن وجوده حقيق وأما الظلمة فتبع كالظل بالنسبة إلى

الشخص . فإنه يرى أنه موجود وليس بموجود حقيقة . فأبداع النور وحصل الظلام تبعاً لأن من ضرورة الوجود التضاد فوجوده ضرورى واقع فى الخلق لا بالقصد الأول كما ذكرنا فى الشخص والظل . وله كتاب قد صنّفه وقيل أنزل ذلك عليه وهو "زندوستا" يقسم العالم قسمين : ميتة وكيتى . يعنى الروحاني والجسماني ، والروح والشخص ، وكما قسم الخلق إلى عالمين يقول إن ما فى العالم ينقسم إلى قسمين بنحش وكنس ، ويريد به التقدير والفعل ، وكل واحد مقدر على الثانى ، ثم يتكلم فى موارد التكليف وهى حركات الإنسان فيقسمها ثلاثة أقسام منش وكونس وكنش يعنى بذلك الاعتقاد والقول والعمل ، وبالثلثة يتم التكليف . . . »

* * *

ولم تخم المذاهب المتجددة فى الخوسية بمذهب زرادشت وتفسيراته المتعددة . بل بقيت هذه المذاهب تتجدد إلى ما بعد شيوع المسيحية بعدة قرون : وأشهرها وأهمها فى تاريخ المقابلة بين الأديان . مذهب مترا ومذهب مانى المعروف بالمانوية .

انتشر مذهب « مترا » فى العالم الغربى بعد حملات « پومبي » الآسيوية وتدقق الآسيويين من جنوده إلى حواضر سورية وآسيا الصغرى . وأيده القياصرة لأنه كان يرفع سلطان الماوك إلى عرش السماء ، ويقول إن الشمس تشع عليهم قبساً من نورها وهالة من بركتها فيرمزون بعروشهم على الأرض إلى عرش الله فى علمين .

وشاع هذا المذهب بعض الشيوع فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وقصر أتباعه على الذكور دون الإناث ، وجعل لهم درجات سبجاً يرتقونها إلى مقام العارفين الواصلين رمزاً إلى الدرجات التى تصعد عليها الروح بعد الموت من سماء إلى سماء ، حتى تستقر فى نهاية المرتقى عند حظيرة الأبرار .

ويحتفل بالمريد كماها انتقل من درجة إلى درجة فى ولية يتناول فيها الخبز المقدس ويسمح بالماء الطهور ، ولا يطلع قبل الدرجة الرابعة على أسرار الحراب ، بل يقتصر فى العلم بتلك الأسرار على التقليد ، ثم يترقى فى معرفة السر الأعظم

إلى أن يعرف كلمة الله الخالقة في مقام العارفين الواصلين .
وأصل « مترا » قديم في الديانة الآرية ، يدين به الهنود كما يدين به الفارسيون ،
وقد هبط في الديانة الزرادشتية إلى مرتبة الملك الموكل بهداية الصالحين . ولكنهم
جعلوه في الديانة المترية إله الشمس ورب الكون وخالق الإنسان وقاهر أهرمن
بعد جلاء طويل . ولا يسبقه في الوجود شيء غير « الأبد » أو « الزمان » أبي
الأرباب عندهم وأبي كل موجود .

ويمثلون مترا حين تجسد على الأرض مولوداً من صخرة نائية في مكان منفرد
لم يعلم بمولده أحد غير طائفة من الرعاة ألهموا معرفته فتقدموا إليه بالهدايا والقربان ،
ومضى بعد مولده فستر عريه بورق من شجرة التين ، وتغذى بثمرها حتى جاوز
سن الرضاع .

وكان أهرمن يحاربه ويتعقبه بالكيد ويحبط كل عمل له من أعمال الخير
والفلاح ، فأرسل مترا على الأرض طوفاناً أغرقها ، ولم ينج معه إلا رجل واحد حمل
آله وأنعامه في زورق صغير وجدد على الأرض بعد ذلك حياة الإنسان والحيوان ،
ثم طهر الأرض بالنار وتناول مع ملائكة الخير طعام الوداع وصعد إلى السماء ،
حيث هو مقيم يتولى الأبرار بالهداية ويعينهم على النجاة من حبائل الشيطان .
وكان أتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس أو يوم الأحد ، ويحتفلون بمولده
في الخامس والعشرين من ديسمبر لأنه موعد انتقال الشمس وتطول ساعات
النهار ، ويقبحون له عيداً سنوياً في اليوم السادس عشر من الشهر السابع في
تقويم الفرس القديم . . . وقد كان المسيحيون الأولون يقابلون ذلك - بعد ظهور
المسيحية وانتشارها - بتمجيد السيد المسيح في الأيام التي كان عباد مترا ينصرفون
فيها إلى تمجيد هذا الإله الشمسي القديم .

أما المانوية فهي مذهب ماني بن فاتك الذي يرجح أنه ولد في أوائل القرن
الثالث بعد الميلاد ، ومذهبه يخالف مذاهب المجوس الأقدمين في زعمه أن آدم
من خلق الشيطان لا من خلق الله . . . وأن الشيطان أودعه كل ما استطاع أن
يختلسه من نور السماء ليكفل له البقاء ، فلما بصر به الملائكة ولحوا فيه تبس

النور ذهبوا يستخلصونه من قبضة الشيطان ليرتفعوا به إلى العالم الذى هم فيه . ولا يزالون يعملون فى استخلاصه حتى يرجع إلى السماء آخر قبس من الضياء المسروق فيتجلى الله فى سمائه ومن حوله تلك الأرواح النورانية ، ويتخلى الملائكة الذين يحملون الدنيا عن حملهم فتساقط كسفاً وتلثمها النيران تطهيراً لها من بقايا الرجس والمكيدة ، ويتم الانفصال يومئذ بين عالم النور وعالم الظلام . قال الشهرستانى عن صاحب هذا المذهب : « إنه أخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية ويقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق وكان فى الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم : إن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا وأنكر وجود شىء إلا من أصل قديم ، وزعم أنهما لم يزالا قوين حساسين سميعين بصيرين وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان ، وفى الحيز متحاذيان ، تحاذى الشخص والظل . . . »

ثم ذكر أمثلة من الاختلاف بين جوهر النور وجوهر الظلمة فقال إن جوهر النور حسن فاضل كريم صاف نقى الريح حسن المنظر ، وإن جوهر الظلمة قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر ، وإن أجناس النور خمسة أربعة منها أبدان والخامس روحها . فالأبدان هى النار والنور والريح والماء ، وروحها النسيم ، وإن أجناس الظلمة أربعة منها أبدان والخامس روحها والأبدان هى الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان . . . »

* * *

وقد أصاب الشهرستانى حين قال إن هذه الثنوية هى أئزم سمات المذاهب المجوسية لأنها تترأى فى كل مذهب منها بلا استثناء ، وهى كذلك أبى ما بنى منها فى مجال التفكير ومجال الاعتقاد على السواء . لأننا نرى منها ملامح واضحة فى مباحث التفرقة بين العقل والمادة ، ولا سيما مباحث حكماء اليونان .

بابل

والحضارة البابلية من أقدم الحضارات المروية في التواريخ .
ويزعم المشيعون للحضارة الشمرية التي ازدهرت في أرض بابل قبل انتقال
الساميين إليها أنها أقدم الحضارات البشرية على الإطلاق ، ولكنها على الأرجح
نزعة من نزعات العنصرية التي تجعل بعض الكتاب الأوربيين يتجاوزون كل
حضارة سامية إلى حضارة سابقة لها منسوبة إلى عنصر آخر من العناصر البشرية ..
ولهذا يبالغون في قدم الحضارة الشمرية وتقدير زمانها السابق لجميع الحضارات .
إلا أن الحضارة البابلية قديمة لا شك في عراقها على تباين الروايات .
وهي على قدمها لم يكتب لها أن تؤدي رسالة ممتازة في تاريخ الوحدانية ،
فكل ما أضافته إلى هذا التاريخ يمكن أن يُستغنى عنه ولا تنقص منه بعد ذلك
فكرة جوهرية من أفكار التوحيد والتقديس . لأن الوحدانية تحتاج إلى « تركيز
وتوحيد » لا يستبان طويلا في أحوال كأحوال الدولة البابلية . إذ كانت لها
كهانات متعددة على حسب الحواضر والأسر المتتابعة ، وكانت الحواضر بمعزل
عن البادية التي نراى حوطا وتفرد بعقائدها وأساطيرها . . . أما الأسر المالكة
فقد كانت شمرية ثم أصبحت سامية تنتمي إلى أرومات شتى في الجزيرة العربية
من الجنوب إلى الشمال . . . وكانت أرض بابل في وسط العمران الآسيوى مفتحة
الأبواب على الدوام لما تقتبسه من عقائد الفرس والهنود والمصريين والعبريين ،
وغير هؤلاء من أصحاب الديانات المجهولين في التاريخ .
فلم تتوحد فيها العقيدة حول مركز دائم مطرد الاتساع والامتداد بعيد من
طوارئ التغيير والتعديل . وكانت من ثم ذات نصيب في الشريعة وقوانين الاجتماع
أوفى من نصيبها في تطور العقيدة الوحدانية على التخصيص .
ويستطاع الجزم بأن الرسالة البابلية في الدين لم تتجاوز رسالة الديانة
الشمسية السلفية .

فالغزوات التي تُروى عن الأرباب الأقدمين هي غزوات أبطال من الأسلاف الذين برزوا بلامح الآلهة بعد أن غابت عن الأذهان ملامحهم الإنسانية ، ثم تلبست سيرتهم بظواهر الكون العليا فسكنوا في مساكن الأفلاك ، وحملت الأفلاك أسماءهم ولا تزال تحمل بقية منها إلى اليوم .

فردوخ إله الحرب هو كوكب المريخ ، وقد تغلب على تيات ربة الأغوار المظلمة ، فأخذ زوجها وخلانها الأحد عشر وسلسلهم أسارى في مملكته السماوية . فهم المنازل الاثنا عشر التي بقيت في علم الفلك إلى اليوم .

وقد اتفق الساميون والشمريون على الأرباب الكبرى كإله النور الذي يسميه الساميون « شمس » ويسميه الشمريون « آنتو » ... أو كازهرة ربة الخب التي يسميها الساميون «عشتار» ويسمياها الشمريون «نسيانة» ... ولكن الأرباب البابلية أوفر عديداً من أن ينتظامها اتفاق بين قومين مختلفين ؛ لأنهم ارتفعوا بعددها إلى أربعة آلاف وقرنوا بها أنداداً لها من الشياطين والعمالقة تبغ هذا العدد أو تزيد .

ولم ينقض على هذه الأرباب وقت كاف لإدماج صغارها في كبارها ثم فنأها جميعاً في أكبر الأرباب المشرفة على الكون ، أو في رب واحد ينفرد بهذا الإشراف . . . كأن الطواطم التي عبدتها القبائل والأسر لم يطل بها عهد التطور حتى يفعل بها فعله من التصفية والاستخلاص والإدماج والتوحيد . فجاءت الأرباب التالية ولا تزال الأرباب السابقة لها على عهدتها من النفوذ والاستقرار . ولهذا كانت سياسة الكون كما تخيلوها في الأدوار الأولى أشبه بالجمهورية بل بالمشيخة القبلية . فكانوا يتخيلون أن الأرباب تجتمع كل سنة في يوم الاعتدال الخريفي لتنتظر في السماء مقادير السنة كلها وتكتبها في لوح محفوظ لا يمحي قبل نهاية العام . وكان الملك نفسه يتلقى سلطانه على الأرض عامماً بعد عام في مثل ذلك الموعد . . . فيمثل الكهنة رواية الخلق ويشهدوا الملك فرداً من الأفراد . ويتعمدون في بعض مواقف التمثيل أن يمينوه ويستخفوا به ليقرروا بذلك أنه فقد كل سلطان كان له على رعاياه . . . فلا يعود إليه السلطان إلا بإذن

جديد من « مردوخ » يتلقاه قبل ختام الرواية من يد حبر الأحبار .
 ولم يؤثر عنهم في عهد الشمرين إيمان بعالم آخر أو بيوم للحساب والجزاء .
 فن اجترأ على فعل محرم أو قصر في الصلوات والقرابين فالآلهة تجزيه على ذنبه
 بمرض يصيبه لا يشفيه منه غير كاهن المعبد بعد التوبة والتكفير ، وإن لم يكن
 جزاؤه مرضاً فهو خسارة في المال أو البنين أو ذوى القربى والأعزاء ، وكل مصيبة
 من هذه المصائب تنبيه إلى ذنب مقترف أو فريضة منسية ، وحث على التذكر
 وطلب الغفران .

وقد تعم الذنوب فيعم العقاب . وترسل الآلهة على الأرض طوفاناً أو وباء
 يأخذ البريء بذنب المسيئين ، ولكنها تنذر الناس قبل حلول العقاب وتلهم
 الكهان وحدهم تفسير ذلك النذير .

وهم يذكرون لتلك الأرباب غزوات وأخباراً قبل خلق هذه الدنيا كأنهم
 كائنات لا تحتاج إلى خالق ، ولكنهم يذكرون أخباراً قبل تلك الأخبار يروونها
 عن « تيمات » ربة الغمر أو ربة الأغوار والظلمات . ولا يفهم من أخبارهم هذه
 أن تيمات أنشأت الأرباب بقدرة الخلق ، لأنها عندهم ربة القوضى والعماء .
 ولكنهم يحسبون أن الأرباب كانت تحوم في أغوارها كما تحوم الأشباح في
 الظلام ، ويصورونها في إحدى أساطيرهم - كما يصورون البشر الأولين -
 فنصفها سمك ونصفها إنسان .

أما قصص الخلق عندهم فهي مناسبة لموقع البلاد البابلية واشتغال أهلها
 القديم برصد الكواكب ومراقبة الأنواء ، وتدل القصة من أجل هذا على أنها من
 مآثورات قوم عريقين في سكنى تلك البلاد ولم ينقلوها إليهم من بلاد أجنبية
 عنها ، ويرجح ذلك على التخصيص ذكر الطوفان المفصل في بعض القصص
 البابلية ، لأن الباحثين في الآثار يعتبرون أن الطوفان قد غمر ما بين النهرين إلى
 الشمال ، وأن الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح هو الجبل المعروف اليوم
 بجبل أارات ، ولم تشمل قصص الطوفان في البلاد الأخرى على تفصيل كهذا
 التفصيل .

وفحوى قصة الخلق، بعد استخلاصها من الأوشاب الكثيرة، أن الدنيا كانت
قسمة بين تيمات ربة الأغمار أو ربة الماء الأجاج وبين « إيا » إله الماء العذب
وعنصر الخير في الوجود . وموقع الأرض البابلية يجعلها في قبضة هذين الربين
ويوحى إلى أهلها الإيمان بما عندهم من المخاوف والخيرات .

وقد انهزم « آتو » إله السماء أمام جمحافل تيمات فلم ينتصر إلا بعد أن برز
من الماء بطل وليد : هو مردوخ رب الجنود وسيد الحروب .

ثم عمد مردوخ إلى تيمات فشقها نصفين : صنع الأرض من أحدهما وصنع
قبة الفضاء من النصف الآخر ، ثم قيد أسراه في هذه القبة فهم لا يبرحونها
إلا بإذنه ، ورفع إلى السماء ما شاء من الأرباب .

وقد كشفت الألواح التي تضمنت شروح هذه القصة بالخط المسماري في
أواخر القرن التاسع عشر ، ونقلت إلى المتحف البريطاني بلندن حيث تحفظ
الآن . وهي مقسومة إلى سبعة أقسام : كل قسم يتحدث عن يوم من أيام الخلق
آخرها اليوم الذي خاق فيه الإنسان . وقد جاء في اللوح المخصص لشرح قصته
أن « مردوخ » أفضى إلى « إيا » بأنه سيخاق الإنسان من دمه وعظمه ، وأمر
حاشيته أن تضرب عنقه - عنق الإله مردوخ - ففعلت . وسال الدم فنجم منه
الإنسان . ويظهر أن ضرب عنق الإله لا يقتله ولا يقضى عليه . لأن مردوخ
كان يتصدر بروحه حشد الأرباب التي اجتمعت في السماء احتفالاً بخلق أبي
البشر ، وسمع منها نشيد الفرح والثناء .

ويتم البابليون قصة خلق الإنسان بقصة أخرى عن طموحه إلى الخلود
واجتهاده في اختلاس سره من الآلهة . فيعاقب على ذلك بالموت ، وتأبى الآلهة
أن يشاركها أحد من الخلق في نعمة الحياة الباقية .

وتعتبر قصة الخلق البابلية أهم نصيب ساهمت به المآثورات البابلية في علم
المقابلة بين تواريخ الأديان .

اليونان

أما تاريخ العقيدة في بلاد اليونان فقد حفل بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب « الأوليمب » الذين خلدوا في أشعار هوميرو وهزيود .

فعبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ومزجوا هذه العبادات جميعاً بطلاسم السحر والشعوذة ، واستمدوا من جزيرة « كريت » عبادة النيازك وحجارة الرواسب التي شاعت بين أهل الجزيرة من أقدم عصورها البركانية ، فرمزوا بها إلى أرباب البراكين والعالم السفلية ، واتخذها بعضهم « طواطم » ينتسبون إليها انتساب الأبناء إلى الآباء .

ولما شاعت بين الإغريق عبادة « أرباب الأوليمب » كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم التي سبقتهم إلى الحضارة وتنظيم العبادات .

فالإله « زيوس » أكبر أرباب الأوليمب هو الإله « ديوس » المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة ، واسمه متداول في العبادات الأوربية جميعاً مع قليل من التصحيف بين اللغات واللهجات ، ومن تصحيفاته أسماء الله والإلهية عند الفرنسيين والطلليان والإنجليز المعاصرين .

والربة أرتيميس - ومثلها الربة أفروديت أوفينوس - هي الربة عشتار البمانية البابلية... ومنها كلمة «ستار» التي تدل على النجم في بعض اللغات الأوربية الحديثة.

والربة « ديمتر » هي إزييس المصرية كما قال هيرودوت ، وهي واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها في بلاد الإغريق وعبادتها بين قدماء المصريين .

وأضيف إلى هذه الأرباب « أدونيس » من « أدوناي » العبرية بمعنى السيد أو الإله ، وأضافوا إليها في مصر بعد الإسكندر المقدوني عبادة إله سموه

سرابيس وهو اسم مركب من اسمي أوزيريس وأبيس المعبودين المصريين ، وكان لهما معبد تدفن فيه العجول التي تعبد باسم أبيس بعد موتها وذهابها إلى

مغرب أوزيريس .

كما أضيفت إليها عبادة « ديونيسيس » في أطوارها المتتابعة التي تلبست أخيراً بعبادة « مِترا » في الديانة الأورفية السرية .

وقد ترقى اليونان في تصور صفات الأرباب خلال العصور التاريخية . فعبدوها قبل المسيح ببضع مئات من السنين وهي على أسوأ مثال من العيوب الإنسانية ، وعبدوها بعد ذلك وهي تترقى إلى الكمال وتقرب إلى فكرة « التنزيه » التي سبقهم إليها المصريون والهنود والفرس والعبرانيون .

فكان أرباب الأوليمب في مبدأ الأمر يقترفون أفعال الآثام ويستسلمون لأغلب الشهوات ، وقد قتل زيوس أباه « كرونوس » وضاجع بنته وهجر سماء ليطارد عرائس العيون والبحار ويغازل بنات الرعاة في الخلوات ، وغار من ذرية الإنسان فأضممر له الشر والهلاك ، وذن عليه بسر « النار » فعاقب المارد بروميثيوس لأنه قبس له النار من السماء .

ولم يتصوروه قط خالقاً للعالم أو خالقاً للأرباب التي تسكنه في جبل الأوليمب وتركب معه متن السحاب . فهو على الأكبر والد لبعضها ومنافس لأنداده منها ، وتعوزه أحياناً رحمة الآباء ونبل العداوة بين الأنداد .

ولم يزل « زيوس » إلى عصر « هوميرو » خاضعاً للقدر مقيداً بأوامره ، عاجزاً عن الفكاك من فضائله .

ثم صوروه لنا هزيود الشاعر المتدين على مثال أقرب إلى خلائق الرحمة والإنصاف ومثال الكمال ، ولكنه نسب الخلق إلى أرباب أقدم منه ومن سائر المعبودات الأولمبية . . . وهي « جيا » ربة الأرض و « كائوس » رب الفضاء و « إيروس » رب التناسل والمحبة الزوجية ، وجعل إيروس يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منه الكائنات السايوية والأرضية وآخرها أرباب الأوليمب . . . وعلى رأسهم « زيوس » المنتقب بأبي الأرباب .

وكان « أكسينوفون » المولود بآسيا الصغرى قبل الميلاد بنحو ستة قرون أول من نقل إلى الإغريق فكرة الإله الواحد المنزه عن الأشباه ، فكان ينهى على قومه أنهم يعبدون أرباباً على مثال أبناء الفناء ، ويقول إن الحصان لو عبد إلهاً لتمثله

في صورة الحصان ، وإن الأثيوبي لو تمثل إلهاً لقال إنه أسود الإهاب ، وإن الإله الحق أرفع من هذه الشبهات والتجسيات ، ولا يكون على شيء من هذه الصفات البشرية . . . بل هو الواحد الأحد المنزه عن الصور والأشكال ، وإنه فكرٌ محض ينظر كله ويسمع كله ويفكر كله في تقويم الأمور وتصريف أحكام القضاء .

وكان أثر الديانات الآسيوية والمصرية أظهر من كل ما تقدم في الديانة الأورفية السرية . لأنها كانت ملتی عبادة إيزيس وعبادة مترا وعبادة المجوس والبراهمة .

عرفوا « الروح » وعرفوا تناسخ الأرواح ، وعرفوا أدوار التطهير والتكفير ، ومزجوا بها عبادة « ديونيس » الذي كان في عصورهم الغابرة إله الخمر والقصف والترف . . . فجعلوا خمره رمزاً إلى النشوة الإلهية : نشوة الحياة والشباب الخالد المتجدد على مدى الأيام .

وكانت محاريبه الكبرى بآسيا الصغرى . ولكنهم كانوا يحتفلون في أثينا بعيد يسمونه الأنستريا Anthesteria يوافق شهر فبراير ، وتقوم شعائره على مزيج من عبادة الحياة وعبادة الأسلاف والموتى ، فيشربون الخمر في جرار الجناز والقرايين ويعتقدون أن هذه الخمر تسرى إلى الأجساد البالية فتنتف فيها الحياة وتصلحها للبعث من جديد في أجسام الأجنة المطهرة من أدران حياتها الماضية .

ونحن لا نغنى هنا بالفلسفة اليونانية . بل نقصر القول في هذا الفصل على العقيدة اليونانية التي تطورت عندهم تطوّر الأديان لا تطوّر الأفكار والمباحث العلمية أو الفلسفية .

في هذا المجال — مجال العقيدة — يمكن أن يقال إن اليونان أخذوا فيها كل شيء ولم يعطوا شيئاً يضيف إلى تراث البشر في مسائل الإيمان ، وإنهم حين بدعوا عصر الفلسفة كان أساسها الأول ممهداً لهم في العقائد التي أخذوها عن الديانات الآسيوية والمصرية ، وإنهم ظلوا بعد الفلسفة يدينون بالوثنية التي كانوا يدينون بها قبل الميلاد بعدة قرون .